

نَسَائِحُ جَوْهَرِ الصُّقْلَى

قائِدُ المَعْرِزِ لِدِينِ اللهِ الفِطْهِ

تأليف
الدكتور على إبراهيم حسن
للقسم الأول للوراء الاجتماعية
بوزارة التربية والتعليم



مكتبة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدل بآنا بالقاهرة

اهداءات ٢٠٠٠

المرحوم ا.د. فريد شافعي
أستاذ العمارة الإسلامية - القاهرة

نَسَائِجُ جَوْهَرِ الصَّقَلَى

قَائِدُ الْمَعْرِفَةِ لِدِينِ إِبْنِ عَبْدِ الْفَاهِي

تأليف
الدكتور علي إبراهيم حسن
للتنشيط الأول لل مواد الاجتماعية
بوزارة التربية والتعليم



مكتبة الطبع والنشر
مكتبة التحفة المصيرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عبد الباقا الكوفة

هذا الكتاب تال به للؤلف درجة ماجستير في التاريخ الإسلامى من جامعة القاهرة

الطبعة الثانية ١٩٦٣

طبعة السعادة
١٢ ش. الحرى - القاهرة
م: ٩٠٧٣٧٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصديق

أتابع في قياسي بتدريس مواد التاريخ الاسلامي العام وتاريخ مصر
قبما قبل الفتح الفاطمي وفي العصر الفاطمي وفي عصر الأيوبيين والمماليك
كأستاذ للتاريخ الاسلامي في كلية دار العلوم وكلية الآداب بجامعة القاهرة
وبجامعة بخراد - على متابة تحليل شخصية « جوهري الصقلي »

تأولت حياة جوهري الصقلي ، قائد المعز لدين الله الفاطمي ، بالبحث ، لما
لذلك القائد العظيم والفتاح الكبير من الأثر في تاريخ العالم الإسلامي عامة
وتاريخ مصر الإسلامية خاصة ، لاسيما وأنه هو الذي فتح بلاد المغرب وفتح
مصر وأقام سلطان الفاطميين في الشرق .

وإن عصر جوهري الصقلي لمن أم حصور التاريخ المصري ، لذلك كان
جوهري لا يقل أهمية عن عمرو بن العاص ، وأحمد بن طولون ، ومحمد بن طنج
الإخشيد ، وصلاح الدين الأيوبي ، والظاهر بيبرس ، وغيرهم من مشهورى
أمراء مصر وحكامها .

لذلك استقصيت كل ما يتعلق بتاريخ هذا القائد وآثاره ، واستطلعت أن
أوضح الكثير من المسائل الفاضلة في هذه الناحية من نواحي تاريخ
مصر الإسلامية .

وقد عنيبت بتدريس كل ما كتب عن نشأة ذلك القائد وموطنه الأصل ،
والدور السياسي الذى قام به في تاريخ مصر : من ذلك تأسيس مدينة القاهرة
التي لا تزال حاضرة الديار المصرية إلى اليوم ، وبناء الجامع الأزهر ، ونشر
الذهب الفاطمي ، وفتح مصر والشام وفلسطين والحجاز ، وتوطيد دعائم
سلطان الفاطميين فيها ، وحد غارات القرامطة من مصر ، وهزيمة اقتكبين
ومن حالفه من القرامطة .

المؤلف

محتويات الكتاب

سجقة

تصديق الكتاب ٢

الباب الأول

جوهر منذ ولادته إلى أن ولي فتح مصر

جوهر قبل اتصاله بالبحر ٩

أصل جوهر ، ولادته ، بيته ، الحسين بن جوهر

جوهر منذ اتصاله بالبحر إلى أن فتح مصر ١٤

جوهر الصقل ، جوهر الكتاب ، نقل جوهر الوزارة في بلاد المغرب ،

فتوحه في بلاد المغرب ، منحه لقب القائد ، توليته إمرة الجيوش

لفتح مصر .

الباب الثاني

استيلاء جوهر على مصر

حالة مصر قبل الفتح الفاطمي ١٨

مصر في عهد الإخشيد : ثروة مصر في عهده ، ضعف الخلافة العباسية

مصر في عهد كافور : أصل كافور ، قيامه بالوصاية على أنوجور وأبي

الحسن على أبي الإخشيد ، ظهور الوحشة بينه وبين ولدي الإخشيد ،

استئثار كافور بالسلطة ، حالة مصر في أواخر أيامه ، حالة مصر

بعد وفاته

فتح مصر ٢٥

حملات الفاطميين الأولى على مصر ، حملة المزعل على مصر ، صد كافور لها ،

المزعل بعد المدة لفتح مصر ، تولية جوهر القيادة ، تقدير المزعل لجوهر ،

سحنة

توديع المزله ، سير الجيوش الفاطمية بقيادته ، وصول جوهر إلى
برقة ، استيلاؤه على الأسكندرية ، مفاوضات الصلح بين جوهر
والمصريين ، اضطراب أهل الفسطاط ، بيان جوهر للمصريين ، استيلاؤه
على الفسطاط ، استئناف مفاوضات الصلح بينه وبين المصريين ، بيان
جوهر الثاني ، تهنة المصريين جوهر أ بالفتح ، دخول جوهر الفسطاط ،
جوهر وتنة الفتح .

الباب الثالث

سياسة جوهر في مصر

فتح سورية ٣٩

استيلاء جعفر على الرملة ، استيلاؤه على طبرية ، مقابلته وفد دمشق ،
استيلاء جعفر على دمشق ، قيام الأهلين بالثورة ، معاملة جند الفاطميين
للأهالي ، جعفر وزعماء الثورة في سورية .

تهديد سلطان الفاطميين في سورية ٤٣

١ - القرامطة : سبب الحرب بين الفاطميين والقرامطة ، التحالف
بين جعفر وأمير الرحبة المحدثي ضد القرامطة ، نشوب القتال بين
الحسن وجعفر ، هزيمة جعفر .

٢ - أفتكين : أصله ، استجداد أهل دمشق به ، دخوله دمشق ،
اتحاده مع القرامطة لطرد الفاطميين ، إسناد قيادة الجيوش الفاطمية
في الشام إلى جوهر .

صد جوهر غارات القرامطة عن مصر ٤٨

حملة القرامطة الأولى على مصر : سير القرامطة إلى الرملة ، وصولهم
إلى القلزم ، وصولهم إلى الفرما ، اعتراف مدينة تليس بسلطانهم ،
القرامطة في عين شمس ، تهديم القاهرة ، استعداد جوهر لقتالهم ،
رجوعهم إلى القلزم ، قضاء جوهر عليهم ، موقف الإخشيديين .

سجدة

حلة القرامطة الثانية على مصر : كتاب المزم إلى الحسن زعيم القرامطة ،
رد الحسن ، استعداد المزم للقتال ، القرامطة وجلاؤهم عن مصر .

٥٢ دعوة الفاطمية في مصر
(١) قبل الفتح :

العوامل التي دعت الفاطميين إلى اختيار مصر مقراً للدعوة الشيعية
بدلاً من بلاد المغرب ، الحملات الفاطمية وأثرها في نشر المذهب
الفاطمي في مصر ، انتشار الدعوة الفاطمية في مصر في عهد الإخشيد ،
استقبال كافور دعاة الفاطميين .

(ب) بعد الفتح :

جوهر وإقامة الخطبة للمز : الدعوة الفاطمية في المساجد : في جامع
عمرو ، في جامع ابن طولون ، في الجامع الأزهر ، التعاليم الفاطمية في
القصر الفاطمي ، داعي الدعاة .

٦٣ النظام الإداري في مصر في ولاية جوهر .
سياسة جوهر العامة في مصر : قصر مناصب الدولة على المشيعين ،
إقصاء جوهر السنيين عن المناصب تدريجياً ، جباية الحراج ، الزاوة ،
القضاء ، الحسبة ، موقف جوهر إزاء سلوك المغاربة .

الباب الرابع

منشآت جوهر في مصر

٧٤ تأسيس مدينة القاهرة

المواضع الإسلامية في مصر قبل القاهرة : القسطنطينية ، العسكر ،
القطائع . سبب إنشاء القاهرة ، تسميتها ، موقعها ، سورها ، ظاهرها ،
القصر المزمى ، أبواب القصر ، قصر المزمى ، بين القصرين ، أبواب
القاهرة : باب زويلة ، باب النصر ، باب الفتوح ، حالة مصر العامة في
عهد جوهر

سيرة

٩١ بناء الجامع الأزهر

المساجد الجامعة في مصر قبل الأزهر : جامع عمرو بن العاص ، جامع
العسكر ، جامع ابن طولون .

سبب بناء الجامع الأزهر ، تسميته ، وصف الجامع الأزهر : مقصورة
جوهري ، مقصورة الأمير عبد الرحمن كتنخدا ، أعمدة المقصورتين ،
صحن الجامع الأزهر ، محراب جوهري ، محراب الجامع الأزهر ، منبر
الأزهر ، تحويل الأزهر إلى جامعة في عهد العزيز .

الباب الخامس

حياة جوهري في مصر بعد قدوم المعز إليها

٩٨ قدوم المعز إلى مصر

خروج المعز من المنصورة ، استخلافه بلكين على إفريقية ، وصوله
إلى برقة ، دخوله الأسكندرية ، استقباله ، خطبته ، وصول المعز
إلى الجيزة ، استقبال جوهري له ، وصوله إلى القاهرة ، دخوله القصر ،
استقباله الأشراف والقضاة والعلماء ، هديتنا المعز لجوهري ، وأبي جعفر مسلم
للمعز ، صلاحه في مصر القاهرة ، هديتنا المعز لجوهري ، صرف جوهري
من ولاية الأعمال العامة في مصر ، إسناد الأعمال إلى يعقوب بن كلس
وعسولج بن الحسن ، سبب صرف جوهري .

١٠٤ تثبيت سلطان القاطمين في سورية

خروج جوهري إلى سورية ، احتلاله الرملة ، ولاد أهل دمشق
لأفنديين ، نزول جوهري بظاهر دمشق ، الحرب بينه وبين أفنديين ،
هزيمة أفنديين ، مسير جوهري إلى الرملة ، تفرجه على عسقلان ،
محاصرة القرامطة وأفنديين لعسقلان ، المفاوضات بين جوهري
وأفنديين بشأن الصلح ، مرور جوهري تحت سيف أفنديين وريح
الحسن ، عودة جوهري إلى مصر ، خروج المعز مع جوهري إلى الشام ،

صحة

طلب العزيز المهادة من أفتكين ، رفض أفتكين ، الحرب بين
القرامطة وأفتكين وبين العزيز ، هزيمة الحسن الترمطلى وفراره ،
فرار أفتكين والقبض عليه ، أفتكين في مصر ، عفو العزيز عن
أفتكين وأثر جوهر في ذلك ، إكرام العزيز لأفتكين ، وفاة أفتكين

١١٣

تقدير جوهر

الباب السادس

دولة الفاطميين التي أقامها جوهر الصقلي في مصر

- ١ - خلفاء العصر الفاطمي الأول ٣٦٢ - ٤٨٧ هـ ١١٩
- ٢ - خلفاء العصر الفاطمي الثاني ٤٨٧ - ٥٦٧ هـ ١٢٧
- ٣ - تقلص سلطان الفاطميين ١٢٩
- ٤ - سقوط الفاطميين ٥٦٧ هـ ١٣٢
- ٥ - تقدير الفاطميين ١٣٦
- مصادر الكتاب ١٥٢ - ١٣٩

الصور والخرائط

- ١ - خريطة اتساع الدولة الفاطمية ١٩
- ٢ - جامع عمرو بن العاص ٥٩
- ٣ - جامع أحمد بن طولون ٦١
- ٤ - خريطة القاهرة في عهد الفاطميين ٨٠
- ٥ - خريطة اتساع مدينة القاهرة ٨١
- ٦ - الجامع الأزهر ٩٢
- ٧ - بعض عقود الجامع الأزهر - وهي من عهد إنشائه . . . ١٢١
- ٨ - منارة جامع الحاكم ١٢٣
- ٩ - جامع الأقمر - الذي بناه الخليفة الأمر الفاطمي . . . ١٢٧
- ١٠ - خريطة الدولة الفاطمية ١٢٩

الباب الأول

جوه منذ ولادته إلى أن ولي فتح مصر

جوه قبل اتصاله بالعر:

إن البيئة التي ينشأ فيها الشخص ويترعرع تأثيراً كبيراً في أعماله ويدرستها يسهل الحكم على حياة الرجل بما يحيط به من المؤثرات ، لذلك يجب أن نتكلم على جزيرة صقلية ، موطن جوه الأصل .

ولد جوه بجزيرة صقلية ، إحدى جزر الدولة الرومانية ؛ فهو باعتماد مولده روى الأصل^(١) ؛ وكان العرب يطلقون على أهالي الدولة الرومانية (الشرقية والغربية) اسم الروم .

وقد ظلت صقلية^(٢) ، موطن جوه الأصل ، تحت حكم الرومان حتى

(١) ذكر المقرئ (المخطوط ١ ص ٣٧٧) أن جوهراً ، ملوك رومى ويا المعزدين الله . كذلك أطلق عليه ستانلي لين بول (The Story of Cairo p 117) اسم « العبد الرومى » ،

(٢) صقلية : ثلاث كرات وتشديد اللام ، والياء أيضاً مشددة . والجمع يقول بالسين . وأكثر أهل صقلية يفتخرون بالصاد واللام . وهم من جزائر البحر الأبيض المتوسط ، بينهما وبين إفريقية مائة وأربعون ميلاً . وهي جزيرة خصبة كثيرة البلدان والقرى ، وبها نحو ثلاث وعشرين مدينة وثلاثة عشر حصناً . وبها جبل النار الذى يزعم الروم أن كثيراً من الحكام الأولين كانوا يدخلون إلى الجزيرة لمشاهدة مجآته واحتياج النار والتلج فيه ، وقيل إنه كان في هذا الجبل مدفن الذهب ، وقد سماه الروم جبل الذهب . وحاضرة هذه الجزيرة مدينة بلو ، ومن أكبر مدنها الحاضرة . يقول معجم البلدان ج ٥ ص ٣٧٣ - ٣٧٤ .

فتحها الاغالية^(١) سنة ٢١٢ هـ (سنة ٨٢٧ م) على يد أسد بن الفرات قائد القمروان ، وذلك في عهد المأمون . ومحدثا ياقوت^(٢) أن أسدا فتح الجزيرة على رأس تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل . وكانت ولاية الفقه إمرة الجند مالوفة عند المسلمين ؛ فعلا ماقدون الجيوش وفتحوا كثيرا البلاد ، وخرجوا في الغزوات مابين شامية وصائفة إلى بلاد الدولة الرومانية الشرقية ، التي كانت في عداوة مستمرة مع المسلمين بحكم الجوار فقد ولى القواد يحيى بن أكرم قيادة الجند في عهد المأمون لقتال البيزنطيين .

وقد أسلم أكثر سكان جزيرة صقلية على أثر هذا الفتح ، وبنا بها كثير من المساجد ودور العلم . وكان الرحالة من المسلمين مرفة تامة بمحيط صقلية مهد جوهر . فقد ذكر لنا ياقوت أن أبا الحسين بن يحيى بن الفقيه وصفها في كتابه تاريخ صقلية ، وصفها دقيقا مسهباً ، فتكلم عن جبالها وبراكبتها ومضايقها ومخاضها وثمارها وفواكهها ، وما بها من الآيات والحصون والآثار . كذلك وصفها ابن حوقل الذي رآها سنة ٣٦٢ هـ وهي السنة التي وصل فيها المعز لدين الله الفاطمي إلى القاهرة واتخذها حاضرة لدولته ، وكتب عنها كتاباً سماه : محاسن أهل صقلية ، وذكر من بين مدائح الكيرة بلرم والخالصة ، كما قال أن عدد ماشيته المسلمين فيها من المساء يزيد على الثلاثمائة . ومن ذلك تقف على مدى انتشار الإسلام في هذه البلاد وتمكنه من نفوس أهلها . ووصف هذه الجزيرة أيضاً الشريف الإدريسي المتوفى سنة ٦٤٩ هـ (سنة ١٢٥١ م) ، والذي شاهد كثيراً من محالك الله

(١) أسس هذه الدولة ابراهيم بن الأغلب الذي أطلقه مارون الرشيد شاماً إفريقية في سنة ١٨٤ هـ (سنة ٨٠٠ م) ، فولها هو وأولاده من بعده إلى -
٢٩٦-٩٨٠ م) .

Stanley Lane-Poole: The Muhammadan Dynasties p. 36

(٢) معجم البلدان ٥ ص ٢٧٤

المختلفة^(١) وقد أهدى لوجر الثاني ملك صقلية كرة أرضية من القنصة رسمت عليها البحار والقارات .

وقد صادفت اللغة العربية في تلك البلاد جواً صالحاً ، كما وجد الدين الإسلامى مرضى خصباً بين أهل صقلية . فقد انتشرت هذه اللغة في تلك الجزيرة وأصبحت لغة التخاطب فيها ، واللغة الرسمية للبلاد ، وترجمت في هذه الجزيرة أم مؤلفات أفلاطون وأرسطو إلى اللغة العربية ، كما انتشر الشعر العربي بين أهلها ، وخاصة المعلقات السبع^(٢) وغيرها من القصائد العربية . وكان لما أخذه رودجر الزماندى من العرب من المثل العليا القروسية أثر كبير في ارتفاع شأن أمرته . أضف إلى ذلك ما أخذه عنهم من النظام الإدارى واستماقته بالموظفين المسلمين في إدارة شئون دولته^(٣) .

ويستمر العصر الذى سادت فيه الثقافة العربية في هذه الجزيرة هو العصر الذهبى لها ، ذلك العصر الذى بذت فيه صقلية جميع ممالك أوروبا من حيث الحصار والمدينة . وكان من أثر انتشار اللغة العربية أن أصبحت لغة النقوش التاريخية في هذه البلاد ، حتى كان الملوك من الزماندين يجيدون التكلم بها . وقد أفسحت اللغات الإغريقية والعربية والفرنسية الطريق إلى اللهجة الإيطالية

(١) كتاب نومة اللغات في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان (دومة سنة ١٥٩٢)

ذكر القميرى أن جميع البلاد التى ذكرها الإديسى كانت مكتوبة على ستود حريرية بالنص القاطمى في القاهرة . المخطوط ١ ص ٤١٥ —

(٢) كان عند العرب في الجاهلية أسواق للأدب يتناشد فيها الشعراء القصائد المعصية أمام المحكمين من شعراء العرب . فكانت القصائد التى يحكم لها بالسبق تكتب بما . الذبح وتعلق على جدران الكعبة تكريماً لأسمائها ولشادة بذكرهم بين قبائل العرب المختلفة ، وقد بلغ مجموع هذه القصائد حتى ظهور الإسلام سباً .

ويرجع السبب في ذلك إلى أن الفتح الزماني قد عبر الطريق للهاجرين من إيطاليا ، وبخاصة للزماندين^(١) .

وكان من العليم أن تؤثر هذه البيئة الإسلامية في نشأة جوهر ، فيشب على الإسلام متمسكا بأهدابه ، متقفاً تحقيقاً عالياً بفضل انتشار اللتين العربية واللاتينية وغيرهما من اللغات السائدة في هذه البلاد ، وبأخذ بنصيب كبير من الحضارتين العربية والرومانية . وكان لتلك الثقافة أكبر الأثر فيما عرف به جوهر من حسن السياسة والمهارة الحربية . ولم تلبث هذه الحضارة أن انتشرت بين الفاطميين ؛ فقد كان الخليفة المعز متقفاً يحيد هذه لغات : منها الإغريقية والصقلية ، كما كان ذا ولع بالعلوم ودراية بالأدب ، معروفاً برجاحة العقل وحسن التدبير^(٢) . ومن ثم اختار رجالاً دولته من بين المتأربة وأهل عقلية ممن اشتهروا بالحرم والكفاية والثقافة العالية .

لم يحفظ لنا التاريخ لسوء الحظ شيئاً ذا غناء من بيت جوهر ومن أياه وأمه وأخوته وغيرهم من ذوى قرياه ، ولا من كيفية اتصاله بالمعز ، وإنما هي أخبار مبشرة لا تمثل لنا حياة هذه الأسرة التي نشأ بها جوهر تمثيلاً صحيحاً واضحاً .

وليس لدينا من المصادر ما يسمح لنا بالوقوف على السنة التي ولد فيها جوهر بالضبط ، اللهم إلا ما ذكره ابن زولاق من أنه سأل الشريف أبا جعفر مسلم عند ما عاد إلى القسطنطينية ، بعد مقابله له ومفاوضته إياه بشأن

Encyclopaedia Britannica, Encyclopaedia of Islam (١)
Sicily, S - V.

Stanley Lane-Poole : The Story of Cairo, p. 116 (٢)

الصلح سنة ٢٥٨ هـ . من سن جوهر فقال : : نيف وخمسون سنة^(١) . وعلى ذلك يكون جوهر قد ولد بين سقى ٢٥٠ هـ ، ٢٥٧ هـ . غير أن هذا يتعارض مع ما ذكره المقرئى من أن جوهر ا قد توفى سنة ٢٨١ هـ بعد أن نيف على الثمانين . ولو أخذنا بهذه الرواية لكانت ولادة جوهر بين سقى ٢٩٨ هـ و ٣٠٠ هـ^(٢) . ونحن نميل إلى ترجيح الرواية الثانية لأنها قد وردت على لسان جوهر نفسه . فقد ذكر المقرئى أن جوهر أ قال لابن عمارة في سنة ٢٨١ هـ . وهى السنة التى مات فيها جوهر : لقد نيفت على الثمانين^(٣) . والنيف - على ما ذكره صاحب المصباح - هو من واحد إلى ثلاثة . بينما لم تعد الرواية الثانية أن تكون تقديراً تقريبياً لسن جوهر من أبى جعفر مسلم .

ولم يذكر لنا المؤرخون شيئاً مما إذا كان جوهر قد ولد مسلماً أو أجلب بعد ولادته . والذي يفتل على الظن أنه ولد مسلماً . فقد دخل الإسلام جزيرة صقلية سنة ٢١٢ هـ ، وذلك قبل أن يتصل جوهر بالمسلم بأكثر من قرن . أخف إلى ذلك أن أباه كان يدعى عبداًه ، وهو اسم من الأسماء الشائعة بين المسلمين . وليس بعيداً أن يكون عبداًه هذا قد بادى إلى الإسلام الذى كان منتشراً في هذه الجزيرة منذ زمن بعيد ، وأن جوهر أ قد شب على دين أبيه أما أجداده فلم يتقل لنا التاريخ شيئاً عن إسلامهم ؛ وكل ما ذكره من سلسلة نسب جوهر أنه أبو الحسين جوهر بن عبداًه . ولعل سكوت المؤرخين عن استقصاء ذلك النسب يرجع إلى أنهم لم يعثروا على شيء في ذلك . فقد كان جوهر مولى من الموالى . وقبلما يندى المؤرخون إلى الوقوف على صحة نسب هؤلاء الموالى ، وذلك لعدم عناية الموالى أنفسهم بتدوين أنسابهم . أخف إلى ذلك أن هذا النسب كثيراً ما يكون عرضة للقبوض والإيهام .

(١) المقرئى : اتساظ المختصص ٧١

(٢) المخطوط ١٥ ص ٣٨٠

(٣) أحد قوادى المقارية

وكان لجوهر ولد يدعى الحسين ويكنى بأبي هبة . وكان ذا مواهب
قوة ومقدرة حرية فاقته كآكل أبوه . وكان يلقب في حياة أبيه « بالقائد
ابن القائد » (١) .

جوهر متى انصلح بالمرز إلى أنه فتح مصر :

شب جوهر في حجر الدولة الفاطمية ببلاد المغرب بين موالى المرز .
وبعدنا المقرئ (٢) أن المرز قد اختص جوهرًا من بين مواليه وكناه بأبي
الحسين . وقد قربته الخليفة الفاطمي لما توسمه فيه من الاخلاص لدين والمواهب
الفذة والثقافة الواسعة التي أخذ منها بأوفى نصيب .

ويطلق المؤرخون على جوهر « جوهر الصقل » نسبة إلى موطنه الأصلي
« صقلية » ، ويظهر لنا أن كثيرين من أهل هذه الجزيرة قد انضموا تحت لواء
الفاطميين وحاربوا في صفوفهم بعد أن تأسست دولتهم في بلاد المغرب سنة
٢٩٦ هـ ، بدليل ورود لفظ « الصقالبة » في كثير من المصادر التي يستمد
عليها في تاريخ الفاطميين . وقد شاع إطلاق لفظ الصقالبة على سكان جزيرة
صقلية ؛ وهو خطأ واضح ، لأن الصقالبة من الجنس السلافي ، ومنه
الروس والصرب والبلغار وغيرهم من أهالي البلاد المحيطة بالبحر الأسود .
وبذلك كانت التسمية الصحيحة لأهل جزيرة صقلية هي « الصقليين » ، لا
« الصقالبة » .

ظل جوهر يتدرج في سلك المناصب ببلاد المغرب حتى اتخذ المرز في
سنة ٣٤١ هـ (٩٢٣ م) كاتباً له . ولقب منذ ذلك الحين « بجوهر الكاتب » .

(١) المقرئ : المخطوط ٢ ص ١٤

(٢) المخطوط ١ ص ١٥٢

ولا بد أن يكون المرء قد خبر جوهرًا وعرف ما امتاز به من الصفات والمزايا قبل أن يلي الخلافة بمر من طويل ، إذ يعد كل البعد أن يطفر جوهر بهذه السرعة إلى هذا المنصب الخطير ، وأن يتخذ المرء كاتباً له سنة ٨٣٤١ هـ وهي السنة التي ولي فيها الخلافة . فقد كانت الكتابة إحدى المناصب العالية التي كان الخلفاء لا يستدونها إلا لمن أنسوا فيهم الكفاءة والقعدة على معالجة الأمور ، كما كانت الخطوة الأولى إلى الوزارة إذا ما حاز صاحبها رضا الخليفة .

وكان جوهر عند حسن ظن الخليفة به ، فراه إلى منصب الوزارة سنة ٨٣٤٧ هـ . ولا فرو فقد كان جوهر كاتباً بليغاً ، كما كان عفا جم الأدب في كتابته . يبين ذلك في عهد الصلح الذي كتبه للمصريين ، ذلك العهد الذي سنأتى على ذكره في الباب التالي . وقد كان لهذه الصفات أبعاد الأثر في تهيئة خواطر المصريين وتأييد قلوبهم حقب الفتح الفاعلى .

ومحدثنا ابن خلكان^(١) أن المرء يث جوهرًا (صفر سنة ٨٣٤٧ هـ) ، ففتح ما بقى من بلاد المغرب ، على رأس جيش كثيف يعم كثيرًا من رجالات المغاربة ، ومن بينهم زيرى بن مناد الصنهاجى الذى استخاف المرء ابنه بلكين على بلاد المغرب عند ما رحل إلى مصر فى سنة ٨٣٦٢ هـ . سار جوهر إلى تاهرت^(٢) فاستولى عليها ، ثم استأق السير إلى مدينة قاس فتأجر

(١) ٢٣ ص ١٠٢

(٢) تاهرت (أو تيهرت) اسم لمدينتين متقابلتين استولى عليهما أبو عبد الله الفيسى سنة ٨٢٩٦ هـ ، بعد أن ملكهما بنو رستم زهاء مائة وثلاثين سنة . وكان بها أسواق حامرة وحمامات كثيرة . وكان ميمون بن عبد الوهاب بن رستم بن بهرام (وبهرام مولى عثمان بن عفان) صاحب تاهرت رأس الأباضية وأمامهم ، وكانوا يسلون عليه بالخلافة .

أهلها مدة ، ثم تركها لاستنصاتها عليه . ثم يم سجلماسة^(١) ، وكان قد قام بها رجل تلقب بالشاكر باقة وخاطبه الناس بأمر المؤمنين . فلما علم بدنو جوهر من المدينة هرب منها ، فطارده جوهر حتى قبض عليه وأمره . ثم أمعن جوهر السير في بلاد المغرب الأقصى ، وفتح مدينة تلمو مدينة حتى وصل إلى ساحل المحيط الأطلسي^(٢) . وقد أراد أن يبرهن للمز إلى أي حد وصلت جيوشه في فتوحها ، فأمر أن يصاد من سمك المحيط . ثم وضع هذا السمك في قلال من الماء ويثنه إلى المز ، وأعلمه أنه قد استولى على ما مر به من المدائن والأمم وسلك ما هناك من البلاد فافتتحها^(٣) .

ولما لم يتمكن جوهر من الاستيلاء على بلاد المغرب كلها ، لاستنصاء فتح فاس عليه ، عاد إلى هذه المدينة وطال فتحها من جديد . وقد تم له ما أراد ، فتحها حنوة واستولى عليها ، وقبض على صاحبها وعلى صاحب سجلماسة ، ثم وضعهما في قفصين حملهما مع هدية إلى الخليفة المز وهو في المهديّة .

وهكذا تمكن جوهر من توطيد الأمن في جميع أرجاء بلاد المغرب في أقل من سنة ، وإتمام الفتوحات التي بدأها أبو عبد الله الفسيحي سنة ٢٩١ هـ (سنة ٨٩٦ م) ، فأخضع لسلطان المز أهالي هذه البلاد ودانوا له بالطاعة والولاء . فلا عجب إذا عظم شأن جوهر عند المز ، فاختاره لقيادة الحملة التي أرسلها لفتح مصر ، ولقبه « بالقائد » .

(١) سجلماسة : مدينة بالمغرب الأقصى ، يجري فيها نهران أصلهما واحد ، فإذا قربا من المدينة انصبا إلى نهرين فيسلكانها شرقا وغربا . وتقع في سهل أرض سبخة حول أرباض كثيرة ، ويعتمد عن القيروان بستان وأربعين فرسخا . وكان يتأواها سنة ١٤٠ هـ وفي سنة ١٦٠ هـ اتجنتها بنو مدوار حاضرة ملكهم (البكري ص ١٤٨ - ١٤٩)

(٢) القرطبي : المخطوط ١ ص ٣٥٢

(٣) القرطبي : نفس المصدر والمجزء ص ٣٧٨

وقد ذكر ابن خلسكان^(١) أن جوهرًا مرض وهو في بلاد المغرب مرضاً شديداً أشرف معه على الموت . لحزن للمز وعاده بنفسه في بيته ، وهو شرف لا يناله إلا المقربون . وكان نفس المز كانت تحدّثه بأن مصر لن تفتح إلا على يد جوهر . فلما عاد من زيارته قال : « هذا لا يموت ؛ وستفتح مصر على يديه » . وقد تحققت نبوءة المز ، فشفى جوهر من مرضه . وسرطان ما أعدت معدات الحملة وخرج المز لرداعه ، وهو ما ستفصله بعد .

(١) ١٥ ص ١١٩ .

Lane—Poole : Egypt in the Middle Ages, p. 99

الباب الثاني

استيلاء جوهر على مصر

ماز مصر قبل الفتح الفاطمي:

كانت مصر قبل الفتح الفاطمي تحت حكم الإخشيديين منذ سنة ٨٢٢٣ ، وظلت على ذلك إلى سنة ٨٣٥٨ حيث فتحها جوهر قائد جيوش المعز لدين الله .

وقد أسس محمد بن طنج الإخشيد هذه الأسرة على أثر ولاية هذه البلاد للمرة الثانية سنة ٨٣٢٣ . وكانت مصر في عهده في طمأنينة وهدوء . وكان الأمن مستتباً ، والعدل شاملاً ، والبلاد لازال قوية بجندها الذين كانت تدفع لهم رواتبهم بانتظام . أضف إلى ذلك قوة العباسيين الذين كانت مصر تابعة لهم تابعة اسمية . لذلك استطاعت مصر أن تقف في وجه الفاطميين الذين جعلوا الاستيلاء عليها نصب أعينهم منذ خلافة عبيد الله المهدي . وقد زاد كل ذلك في قوة الإخشيد حتى تمكن من صد الجيوش الفاطمية التي أغارت على هذه البلاد في عهد القائم بن المهدي سنة ٨٣٢٤ .

وقد كانت الصلة بين الإخشيد والخليفة العباسي على خير ما يكون من الصفاء وحسن التفاهم^(١) . وظلت أواصر هذه الصلة قوية متينة إلى أن جاء ابن رائق لصرف الإخشيد عن مصر بأمر الخليفة . لهذا لانعجب إذا ثارت فتارة الإخشيد ، فكتب إلى نائبه في بغداد لاستطلاع رأى الخليفة الذي لم

(١) أبو الحسن ٢٥ ص ٢٦١

يحصل به ولم يرد عليه بشيء . ولكن من أثر ذلك أن أمر الإخشيد بإلغاء الخليفة الخليفة العباسي وإحلال اسم الخليفة القائم الفاطمي عليه . وهذا العمل — كما سئى — يعتبر خطوة تمهيدية للاعتراف بسلطان الفاطميين .

على أن الدولة العباسية لم تلبث أن ضعفت في أواخر أيام الإخشيد إلى حد كبير . وذلك على أثر تنازع السلطة في بغداد بين توزون والبريدى الذين كانا من قواد الأتراك . ومن ثم لم يجد الخليفة بداً من الاستنجاد بالإخشيد ، أقوى ولاته في ذلك العصر . وسار الخليفة إلى الشام ، فلقبه الإخشيد في مدينة الرقة^(١) وعرض عليه البقاء معه في الشام أو الذهاب إلى مصر . ودارت المفاوضات بين الإخشيد وتوزون الذى تمهد بحماية الخليفة ، فعاد الخليفة إلى بغداد ، ورجع الإخشيد إلى مصر . أما توزون فإنه لم يرج لمعه حرمه ؛ فقد سمل عين الخليفة وحجبه ثم قتله^(٢) . وجاء بعد ذلك بنو بويه لنصرة الخليفة العباسي الذى لم يلبث أن أصبح العروة في أيديهم .

مات الإخشيد في فلسطين في شهر ذى القعدة سنة ٢٢٤ هـ ودفن في بيت المقدس ، فخلفه ابنه الأكبر أبو القاسم أنوجور^(٣) وهو في الخامسة عشرة من عمره . وقد قام بتدبير أمره أبو المسك كافور .

كان كافور عبداً خصباً ملوكاً لأحد أهالى مصر ، فاشتراه منه محمد بن طنج مؤسس الدولة الإخشيدية فيما بعد ، وكان إذ ذاك من كبار القواد . وقد ذكر السيوطي^(٤) أن الإخشيد اشترى كافوراً بثانية عشر ديناراً ؛ وذكر

(١) بلدة واقعة بين العراق والشام .

(٢) أبو الحسن ٢٥٠ ص ٣٠٧

(٣) أنجور أو أنوجور معناها بالعربية محمود على ما ذكره ابن خلكان (١ ص

٥٤٥) والسيوطي (٢٥٠ ص ٢٧٣)

(٤) حسن المحاضرة (٢٥٠ ص ٢٧٣) ، وابن خلكان (١٥ ص ٤٣١) وأبو

الحسن (٢٥٠ ص ٣١٥)

المقريري^(١) أنه أرسل هدية لمحمد بن طنج ، فتوسم فيه الدكاه وأبقاه عنده ورد الهدية إلى صاحبها .

ولما آلت ولاية مصر إلى الإخشيد ترقى كافور في بلاطه ، فاختصه الإخشيد من بين عبيده ومنحه ثقته حتى جعله أتابك^(٢) ولديه أبي القاسم أنوجور وأبي الحسن علي . ولا غرو فقد كان الإخشيد يرى في كافور النجاة والمهمة ، حتى ذكر بعض المؤرخين أنه قال : والله لا ورث دولة ابن طنج إلا هذا العبد .

ولما توفي الإخشيد وخطفه ابنه أبو القاسم أنوجور قبض كافور على زمام الأمور في كافة البلاد الخاضعة لحكم الإخشيديين : وهي مصر والشام والحجاز وقد استهل كافور عهده بالقضاء على الثورة التي قام بها المصريون في وجهه . أضف إلى ذلك ما أصابه من الفوز في طرد أبي الحسن على الملقب بسيف الدولة الحمداني من دمشق ، والحيولة بينه وبين المسير إلى مصر . وكان من أثر هذا الانتصار الذي دلت عليه هذه الغنائم التي استولى عليها المصريون في هذه الحرب ، أن عظم شأن كافور ؛ فتعاطبه عليه القوم بالآستاذ ، ودعى له على المنابر في مصر والشام والحجاز^(٣) باسم أبي المسك^(٤) كافور ، تلك التسمية التي كناه بها الخليفة العباسي . وقد اكتسب محبة القواد وكبار رجال الدولة بما أغدقه عليهم من العطايا والمبات ، كما انبسطت يده في كافة شئون البلاد^(٥) .

(١) المخطوط ج ٢ ص ٢٦

(٢) أنا معناه بالتركية الأب وبك معناه الأمير ، أي أبو الأمير . أو مربي الأمير .

(٣) ذكر المقريري (المخطوط ج ٢ ص ٢٦) أن أمهال الفسطاط والزمنة وطبرية

لم يدعوا للإخشيد قبل ٤٣٤ هـ .

(٤) أطلقت هذه الكنية عليه من قبيل التلميح والمفاخرة ، لأن المسك أسود اللون ، وكان كافور كذلك . وكانت الصباغة في إطلاق لفظ كافور عليه ، لأن الكافور

أيضاً وكان هو أسود اللون .

وكان من أثر ازدياد نفوذ كافور أن ظهرت الوحشة بينه وبين أنوجور ،
وعمل كل منهما على الإيقاع بالآخر . واتسم الجند فريقين : الإخشيدية
والكافورية . ومات أنوجور في ذى القعدة سنة ٥٢٤٩ هـ ، ولم يتجاوز التاسعة
والعشرين ، حتى ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن كافورا قد دبر أمر وفاته
بالم . وقد أقام كافور أخاه أبا الحسن على بن الإخشيد وهو في الثالثة
والعشرين . ولم يكن لهذا الأمير الجديد مع كافور شيء . فقد استبد بالأمـر
دونه وعين له - كما عين لأخيه من قبله - أربع مائة ألف دينار في كل سنة (١)
ومنع الناس من الدخول إليه . وبعثنا المقرئ أن أبا الحسن احتل بـلـة
أخيه ، وأنه مات كذا الحرمان من سلطته الشرعية (المحرم سنة ٥٣٥٥ هـ) . وقد
حال كافور بعد وفاة أبي الحسن دون تعيين ابنه أحمد ، بحجة أنه غير صالح
للملك لصغر سنه ؛ وبقيت مصر بغير أمير مدة أيام . وفي المحرم من سنة
٥٣٥٥ هـ أخرج كافور كتاباً من الخليفة المطيع الباسي بتقليده ولاية مصر
والبلاد التي تحت سلطانها . فلم يغير لقبه الأستاذ ، ودعى له بسيد الخليفة
على منابر مصر والشام والحجاز ، وكان يدعى له قبل ولايته بسيد الخليفة
والوال (٢) .

ولم يكف كافور يستولى على ولاية مصر سنة ٥٣٥٥ هـ حتى أرسل الممـر
الفاطمي جيشاً لغزو هذه البلاد . فلما وصلت الجنود الفاطمية إلى الواحات ،
جهز كافور جيشاً طردم وقتل منهم عدداً كبيراً . على أن كافورا قد أحسن
استقبال الدعاة الفاطميين الذين وفدوا عليه في بلاطه من قبل للمريد دعوه
إلى طاعته ، حتى كان من أثر ذلك أن مال إلى المذهب الفاطمي الكثيرون من
الكتاب والجنود الإخشيدية والكافورية .

(١) أبو الحسن ٢٣ ص ٣١٥

(٢) المقرئ : ٤ ص ٣٦ - ٣٧

من ذلك نرى أن فكرة تحويل السلطة من العباسيين إلى الفاطميين كانت قد اختصرت في نفوس المصريين . ولا شك في أن الحالة السيئة التي سادت هذه البلاد في السنين الأخيرة من حكم كافور قد ساعدت على زوال سلطان الإخشيديين عن هذه البلاد . فقد أتاب مصر البؤس والفناء بدرجة لم ترها من قبل . وكان أشد تلك المحن أثراً انخفاض النيل الذي بدأ في سنة ٢٥١ هـ ، وما تبعه من انتشار القحط وتفشي الوباء . فاشتد الفناء وقدر القمع ، وفشا الموت بحالة عجز معها الناس عن تكفين الموتى وعن مواراتهم ، حتى قيل إنه كان يلقى بجثث الموتى في النيل لكثرتها^(١) . وقد ذكر ابن خلكان أن عدد الموتى بلغ ٦٠٠,٠٠٠ . يضاف إلى ذلك عجز كافور عن صد القرامطة الذين أغاروا على الشام سنة ٢٥٢ هـ (سنة ٩٦٢ م) ونهبوا حجاج مصر في طريقهم إلى مكة (سنة ٢٥٥ هـ) . وعدم استطاعته الدفاع عن مصر التي أغار عليها النوبيون حتى وصل ملكهم إلى انعيم ، وما كان من اضطراب الحكومة وصير كافور عن دفع رواتب حرسه وغلانته^(٢) فتشكروا له وتلوا عليه^(٣) .

توفي كافور في ٢٠ جمادى الأولى سنة ٢٥٧ هـ (٩٦٨ م) وهو في السنين من عمره ، بعد أن تولى أمر مصر والشام والحجاز زهاء إحدى وعشرين سنة ، ودفن في دمشق^(٤) . وقد ترك مصر في حالة يرثى لها من الفوضى والاضطراب . وكان المذهب الفاطمي في هذه البلاد قد بدأ ينمو ويطرد بين عدد كبير من المصريين . كل ذلك قد مهد الطريق أمام جوهر لفتح مصر وتحويلها من سلطان الإخشيديين إلى سلطان الفاطميين .

(١) المقرئى : المخطوط ٢ ص ٢٧

(٢) ذكر المقرئى أن عدد مؤلاء الختان بلغ ألفاً وسبعمائة

G- Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte P- 31 (٣)

Lane-Poole : The story of Cairo p. 103 (٤)

وكانت الدولة العباسية في ذلك الوقت قد بلغت درجة كبيرة من الضعف والاضلال . فقد سادها الاضطراب والفوضى ، وابتعدت أطرافها ، واقتطعت منها دويلاتها ، وتنازل عليها ولائها ، وكثرت الاطاعة عليها من أعدائها ؛ وهذا الخليفة العباسي أشبه شىء بالدولة في أيدي بني بويه (٢٣٤ - ٨٤٤٧ ، ٩٤٥ - ١٠٥٥ م) ، وكانوا من الشيعة الثالين الذين استجد بهم الخليفة لمعاونته وتخليصه من ظلم الأمراء . ولا غرو فإن سلطة الخليفة العباسي قد انصهرت في ذلك الوقت ولم تعد تمثل إلا في الخطبة والسكة ، وذلك لاحتفاظ الأمراء بسلطتهم السياسية لدى الأهليين الذين كانوا يقدسون شخص الخليفة ويولونه احترامهم وتبجيلهم . وهذا ما حدا بسلاطين بني بويه والسلاجقة إلى إظهار الخلفاء أمام الناس بمظهر القوة والقداسة الدينية وأن تقوم مستند من الخليفة ^(١) .

بذلك لم يعد للخليفة من أمر تعيين الولاة شىء . فلما مات كافور اجتمع رجال البلاط في مصر وولوا أبا القوارس أحمد حفيد الإخشيد عرش مصر ، وكان في الحادية عشرة من العمر ^(٢) واتفق أن جاء إلى مصر أبو عبد الحميد الحسن ابن عبيد الله أخى الإخشيد قاراً من وجه القرامطة ، فأمره المصريون على الجيش . فاستبد بالأمر وقبض على الوزير جعفر بن القرات واستولى على أمواله ثم عاد إلى الشام ^(٣) . وقد ظلت هذه البلاد بعد رحيل الحسن ابن عبيد الله إلى الشام سنة ٨٣٥٨ ، نحواً من خمسة أشهر تحت إدارة ابن القرات ، وصلت في أثنائها إلى حالة من الفوضى حيز معها هذا الوزير عن إقرار الأمن في نصابه وتخفيف ما حل بالأهليين من المصائب والويلات ^(٤) .

Gibbon: Decline And Fall of the Roman Empire, VI, p. 54—55 (١)

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٤٥٧

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٥٥ و ٦٥

Lanc—Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 89—90

من هذا كله نرى أن حالة الضعف والبؤس التي وصلت إليها مصر ، ومجزر
العباسيين عن إرسال الجيوش لصد الأعداء عنها قد مهدا السبيل أمام الأمر
الفاطمي لفتح مصر ، ذلك الأمر الذي تم على يد جوهر القائد وهو ماسنيته
في الفصل التالي .

فتح مصر :

عن الفاطميون حناية خاصة بنرو مصر ، لأن ذلك يزيد في رفعة أملاكهم
ولأن استيلائهم على هذه البلاد معناه امتداد نفوذهم على البلاد التي كانت
خاضعة لسلطان الأخشيديين وهي الشام والحجاز . ولا غرو أن موقع مصر
الجغرافي بين الشرق والغرب ، ووفرة ثروتها قد ساعدا على تحقيق أغراض
الفاطميين من بث عقائد مذهبهم ، ونشر سلطانهم على البلاد الإسلامية في
الشرق . لهذا لا نجب إذا رأينا الخلفاء الفاطميين منذ خلافة المهدي يدأبون
على امتلاك هذه البلاد فيرسلون الحملات البحرية والبحرية لفتحها . فقد أرسل
عبد الله المهدي (٢٩٧ - ٣٢٢ هـ) أول الخلفاء الفاطميين ثلاث حملات
لغزو مصر : الأولى في سنة ٣٠١ هـ ، والثانية في سنة ٣٠٧ هـ ، ولم تفته إلا في
سنة ٣٠٩ هـ في حين ابتدأت الحملة الثالثة في سنة ٣٢١ هـ واستمرت حتى عهد
القائم بن المهدي سنة ٣٢٤ هـ . وقد فشلت هذه الحملات الثلاث في الاستيلاء
على مصر وضجها إلى سلطان الفاطميين ، لأن مصر كانت في ذلك الوقت من
القوة بحيث استطاعت أن ترد عنها غارات الأعداء .

وقد انقطعت حملات الفاطميين على مصر في المدة الباقية من خلافة
القائم (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) وطوال عهد المنصور (٣٢٤ - ٣٣٤ هـ) . لأن
العباسيين كانوا لا يزالون من القوة بحيث كان في استطاعتهم الدفاع عن مصر
ورد الفاطميين عنها ، كما أن الثورات التي قام بها الخوارج في بلاد المغرب قد
حالت دون تحقيق الغرض الذي كان يرى إليه الفاطميون وهو فتح مصر .
(٢ - جوهر)

وأعظم هذه الثورات خطراً وأعظمها أثر ثورة أبي يزيد غنم بن كيداد ،
الذي قام بقتله اشتد وقبها على الدولة الفاطمية فأفقدتها زهرة رجالها وجعلت
بيت مالها خلوأ من الصغراء واليخاء .

وقد ظلت الحال على ذلك حتى جاء المرز بايع الخلفاء الفاطميين (٣٤١ -
٣٦٥ هـ و ٩٥٢ - ٩٧٥ م) فأرسل جيشاً لغزو هذه البلاد ، فوصل إلى
الواحات . ولكن كافرأ الإخشيدى صده وحال دون تقدمه .

على أن ذلك لم يصرف المرز عن تنفيذ ما عزم عليه من فتح هذه البلاد .
وقد ساعده على ذلك استتباب الأمن في كافة أرجاء بلاد المغرب بعد إخماد
ثورة أبي يزيد . ثم قيام الاضطرابات وانتشار الفوضى في مصر على أثر وفاة
كافور ، وضعف الخلافة العباسية وانشغالها بدفع البيزنطيين عن بلادها ،
أنسف إلى ذلك عطف المنتهزمين بمصر على الدعوة الفاطمية حتى راسلوا المرز
يطلبون إليه إرسال جيش لغزو هذه البلاد .

وقد لعب يعقوب بن كلس^(١) دوراً هاماً في توجيه نظر المرز إلى حالة
الضعف التي سادت مصر على أثر وفاة كافور .

(١) كان يعقوب يهودياً ، ولد في بغداد وحسب أباه وهو في صباه إلى الشام . ثم
جاء إلى مصر سنة ٣٣٤ هـ ، واتصل بكافور بعد أن أصبحت السلطة في يده في عهد
أنوجور وأبي الحسن على ابني الإخشيد فأحبه كافور من نفسه على العطف والرماية
لما أنه فيه من الممة والنشاط والأمانة ، فسيته في دياره الخاص . ولم تزل
حظوته تزداد عنده حتى جعله على خزائن الدولة ، وقد أسلم في شهر شعبان سنة
٣٥٦ هـ فوات حظوته عند كافور واستثار بذلك حسد الوزير جعفر بن القرات ،
لجسه ابن القرات بعد وفاة كافور ، ولم يطلقه إلا بعد أن تدخل بعض رجال
الدولة في الأمر وبعد أن بذله ابن كلس الأموال . على أن ابن كلس لم يأمن على
نفسه البقاء مع هذا الوزير . فصار خفية إلى بلاد المغرب حيث اتصل بالمرز ودله
على وجهه ضعف مصر وحشاً على التهوض بتروها وضمها إلى أملاكه . وقد ظل
ابن كلس في بلاد المغرب حتى عاد إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ مع المرز .

كان الاستعداد لفتح مصر قائماً على قدم وساق يلاذ المغرب منذ سنة ٢٥٦هـ (٩٦٧ م). فقد أمر المزم بإنشاء الطرق وحفر الآبار في طريق مصر، وأقام المنازل على رأس كل مرحلة، وجمع الأموال للقيام بنفقات هذه الحرب.

ولأغرو فقد كان المزم شديد الاهتمام بفتح هذه البلاد ومد نفوذه إلى الشرق. فلم يأل جهداً في إعداد جيش كثيف وتزويده بالعدد، حتى قيل إن عدد هذا الجيش كان يزيد على مائة ألف مقاتل من شجعان كتامة (من قبائل البربر) الذين أغدق عليهم المزم الأرزاق والمطايا حتى بلغت هذه الأموال — على ماذهب إليه المقرئ — أربعة وعشرين مليون دينار.

ويتبين مبلغ اهتمام الفاطميين بفتح مصر وبسط نفوذهم على سورية وبلاد الحجاز من النخبة التي ألقاها للمزم على شيوخ كتامة قبل مسير هذه الحملة إلى مصر وفيها يقول: «ونحن محتاجون إلى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم. واعدوا أنكم إذا لزمتم ماأمركم به، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق كما قرب أمر المغرب بكم»^(١).

وقد رأى المزم في جوهر الرجل الذي يعتمد عليه في القيام بأعباء هذه الحملة. ولأغرو فقد كان جوهر من الرجال الأفذاذ الذين برهنوا على شجاعتهم وكفايتهم ومقدرتهم الحربية والإدارية. فقد دانت جميع بلاد المغرب من أقصاها إلى أقصاها للمزم، بفضل ما أظهره جوهر من المهارة الحربية، وكان لجوهر أثر في نشر هذا السلطان. فلما أن أوان فتح مصر جملته المزم على رأس الجيوش التي أعدها لغزوها. وما يدل على مبلغ ثقة المزم به قوله حين خرج إلى مدينة رقادة^(٢) لتوديع الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر، واقه لو خرج

(١) المقرئ: انطاط الحفاص ٦٠-٦١.

(٢) رقادة: تبعد عن القيروان بأربعة أميال، وقد وصفها أبو عبيدة البكري

جوهـر وحده لفتح مصر ، وليدخلن إلى مصر بالأودية من غير حرب ،
وليزن في خرابات ابن طولون ويبنى مدينة قهر الدنيا ، . وتقف من جارية
المز على ثلاثة أمور :

الأول : غزو المز في مدح قائده ، حتى كان يرى فيه أنه يستطيع فتح مصر
وحده مع استعصائها على من سبقه من قواد الفاطميين قبله ومعهم الجيوش
الكثيفة . وقد كان لثقة المز بجوهـر الأثر الكبير في نفسه مما جعله يتفانى
في القتال ليكون عند ظن الخليفة به .

الثاني : وقوف المز وقوفاً تاماً على أحوال مصر وعجزها عن صد
الجيوش الفاطمية .

الثالث : أن المز كان يرى إلى اتخاذ حاضرة جديدة للفاطميين في موضع
خرائب القطائع التي أسسها أحمد بن طولون أو قريباً منها لينشر منها نفوذه
الدني والسياسي على بلاد الشرق . أضف إلى ذلك أن تسمية هذه الحاضرة
بهذا الاسم « القاهرة » كان في نفس المز قبل تأسيسها على يد جوهـر ، مما

= في كتابه : « المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب » ، (ص ٢٧) فقال : إنه بكثرة
البناتين وإنه ليس بإفريقية (بلاد تونس الحالية) أهل ولا أطيب تربة منها .
وقيل أن أحد أولاد الأغلب قد أصابه الأرق فأشار عليه طيبيه بالتخرج إلى
موضع رقادة . قام فيه يوماً مادناً . فسمى هذا الموضع من ذلك الوقت « رقادة »
واتخذها إبراهيم بن محمد بن زيادة الله الثاني (٢٦١ - ٢٨٩ هـ ، ٨٧٢ - ٩٠٢ م) .
ومن ثم أخذت في العمران وكثرت فيها المساجد والتصور والحمامات .

ولم تزل مدينة رقادة مقر ملك بني الأغلب إلى أن هرب منها زيادة الله فاراً
من وجه أبي عبد الله الشيعي ، فسكنها عبيدة المهدي إلى أن اتخذ مدينة المهدي حاضرة
الملكة وانتقل إليها سنة ٣٠٨ هـ ، فأخذت رقادة في التراب شيئاً فشيئاً حتى
أصبحت أراً بديع .

يمكن أن يدحض ما ذهب إليه المؤرخون من رصد نجم المدينة وظهور
القاهرة، الذي اشتق منه اسم هذه الحاضرة. ولم تقتصر ثقة الممر بجوهر
عندهذا الحد. فقد ذكر لنا ابن خلكان أن الخليفة الفاطمي أمر اولاده
ورجال دولته بالترجل بين يدي جوهر عند ذهابهم لوداعه حين خروجه
على رأس الجيوش الفاطمية لفتح مصر، كما أمر الممر صاحب برقة بالترجل
لجوهر عند لقائه وتقبيل يده. وقد كتب ذلك على الرال وبذل مائة ألف
دينار على أن يسق من ذلك، ولكنه لم يظفر بشيء. وبعد أن قبل جوهر
يد الخليفة وحافر فرسه أذن له بالمسير. ولما عاد إلى قصره بعث إلى جوهر
كل ما كان عليه من لباس خارجي عدا خاتمه^(١).

خرج جوهر من القيروان^(٢) في الرابع عشر من شهر ربيع الثاني سنة
٢٥٨ هـ (فبراير سنة ٩٦٩ م)، وكان معه ألف ومائتا صندوق من الأموال
على الجمال، وجند يربو عدده على مائة ألف^(٣)، وخيل يزيد عددها على عدد
الجند بكثير. ويحدثنا ابن زولاق أن أبا جعفر مسلم العلوي الذي تم الصلح
بين المصريين والفاطمين على يده، سئل عند رجوعه من تروجه عن مقدار
عسكر جوهر فقال: مثل جمع عرفات كثيرة وعدة^(٤). وقد وصف ابن
هانيء الأندلسي شاعر الممر هذا الجيش في قصيدة طويلة قال في مطلعها:

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج ١ ص ١١٥، القرطبي: المتكلم ج ١ ص ٢٧٨.

(٢) القيروان: أكبر مدائن بلاد المغرب، وتقع على بعد أربعة أميال من مدينة
رقادة، وتشتهر بمساجدها وحدائقها الفناء ومبانيها الفخمة (البكري: كتاب المغرب
في ذكر بلاد أفريقيا والمغرب ص ٢٢ - ٢٧)

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ١١٩

G. Migeon : Art Musulman, tome I. p. 41

(٤) القرطبي: المعانيخ ج ١ ص ٧١

رايت بعينى فوق ما كنت اسمع وقد رايتنى يوم الحشر أروع
غداة كأن الأفق قد سد بطله فماد غروب الشمس من حيث تطلع^(١)

وصل جوهر إلى برقة ، فأدى له صاحبها التبعة على النحو الذى أمره به
المزم . ثم استأنف جوهر المسير إلى الإسكندرية ، ففتحت له أبوابها من غير
مقاومة ، فدخلها ومنع جنده من التمرض للأهلين^(٢)

من هذا نرى أن جوهرأ كان ذا رأى صائب وسياسة حكيمة ، تألف
بها قلوب المصريين . فقد حال دون ماعصاه ينجم من الشعب وأعمال السلب
والنهب التى يرتكبها الجنود الفاتحون . ويرجع الفضل فى ذلك إلى إضداقه
العطايا والأرزاق على جنوده مما لم يترك فى نفس جندى منهم حاجة . وهذا
يضر مبلغ السهولة التى تم بها فتح سائر البلاد المصرية .

وقد اضطرب أهل القسطنطين حين علموا باستيلاء جوهر على
الإسكندرية . ففقد الوزير جعفر بن الفرات مجلساً من كبار القوالة
لتنظر فى الحالة التى وصلت إليها البلاد ، فأجمعوا رأيهم على طلب الصلح ،
وندبوا الوزير ابن الفرات للتفاوض مع جوهر فى شروط الصلح وطلب
الأمان على أرواحهم وأموالهم . فأجاب الوزير عنه أبا جعفر مسلم ، وهو
من الأشراف العلويين ومن ذوى المكانة عند المصريين . فقبل أبو جعفر
القيام بهذه المهمة ، واستصحب معه جماعة من ذوى رأى والنفوذ
فى البلاد^(٣)

وكان إستاند رياسة هذا الوفد إلى أبا جعفر من الأمور التى دلت على

(١) ديوان ابن حاتم الأندلسى ص ١٠٦ - ١١٢

(٢) يحيى بن سعيد ص ١٣٢

(٣) الإسكندرية ص ٦٨٤ ، يحيى بن سعيد ص ١٣٢

حكمة ان الفرات وبعد نظره ، فقد كان ندب رسول من العلويين للقيام بهذه المهمة سبياً في إجابة مطالب المصريين . وقد تجل ذلك في هذه الوثيقة التي اشتملت على شروط الصلح . وقد توجه هذا الوفد في يوم الاثنين ١٨ رجب سنة ٣٥٨ هـ وشيخه جمع كبير من الأهل^(١) .

وقد تلاقى أعضاء هذا الوفد مع جوهر في مدينة تروجه^(٢) ، فقبل جوهر ما عرضه عليه .

وبذلك تم عقد الصلح بين المصريين والفاطيين ، ذلك الصلح الذي أودعه جوهر في هذه الوثيقة التاريخية التي نقلها عن المقرري فيما يلي :

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه بجماعة أهل مصر الساكنين بها (من أهلها) ومن غيرهم أنه ورد من سائقوه التزل والاجتماع معي وم أبو جعفر مسلم الشريف أطال الله بقاءه وأبو اسماعيل الرسي أيده الله وأبو الطيب الهاشمي أيده الله وأبو جعفر أحمد بن نصر أمزه الله والقاضي أعزاه الله ، وذكروا عنكم أنكم التمستم كتابا يشتمل على أمانتكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم ، ففرقتهم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وحسن نظره لكم . فلتحمدا لله على ما أولاكم وتشكروه على ما حماكم وتدأبوا فيما يلزمكم وتساووا إلى طاعته العاصمة لكم المائدة بالسعادة عليكم وبالسلامة لكم ، وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن إخراجهم للمساكر المنصورة والجيوش المظفرة إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والمجاهد عنكم

(١) الدكتور حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٠٦

(٢) بلدة قرية من الاسكندرية

إذ قد تحفظتكم الأبدى واستطال عليكم الاستذل والمتمعة نفسه بالاعتدار على بلنكم في هذه السنة والتقلب عليه وأسر من فيه والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فله في خيركم من أهل بلدان المشرق وتأكد عزمه واشتد كلبه . فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه بإخراج العساكر المنصورة وبادره بإنفاذ الجيوش المظفرة دونكم ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين همهم الحزى وشملتهم المنة واكتفتهم المصائب وتتابعت الرزايا واتصل عندهم الخوف وكثرت استغاثتهم وعظم ضييعهم وعلا صراخهم ، فلم يثبتم إلا من أرمعه أمرم وأضعه حالهم وأبكى عينه ما نالهم وأسهرها ما حل بهم ، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه .

فرجا بفضل الله عليه وإحسانه لديه وما عوده وأرجاء عليه استقناذ من أصبح منهم في ذل مقيم وحذاب أليم ، وأن يؤمن من استولى عليه المهمل ويفرخ روع من لم يزل في خوف ووجل وأثر إقامة الحج الذي تمطل وأهمل العباد فروضه وحقوقه لخوف المستولى عليهم . وإذا لا يأمنون على أنفسهم ولا على أموالهم ، وإذا قد أوقع بهم مرة بعد أخرى فسفكت دماؤهم وابتزت أموالهم مع اعتياد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات وقطع عبث الماينين فيها ليعرق الناس آمنين ويسيروا مطمئنين ويتحفوا بالأطمعة والأقوات ، إذا كان قد اتبى إليه صلوات الله عليه اقتطاع طرقاتها لخوف مارتها إذا لا زاجر للمعتدين ولا دافع الظالمين . ثم تجويد السكة وصرفها إلى البيار الذي عليه السكة الميمونة المنصورة المباركة وقطع النش منها ، إذا كانت هذه الثلاث خصال هي التي لا يتسع لمن ينظر في أمور المسلمين إلا إصلاحها واستفراغ الوصح فيها يؤممه منها وما أمر به مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه إلى عبده من نشر العدل وبسط الحق وحسم الظلم وقطع العدوان ونفى الأذى ورفع الحزن والقيام في الحق وإعانة المظلوم مع العفقة والإحسان

وجبل النظر وكرم الصحة ولطف العشرة وافتقار الأحوال وجباطة أهل
البلد في ليالهم ونهارهم وحين تصرفهم في ابتغاء معاشهم حتى لا تجرى أمورهم
إلا على ما لم شئتم وأقام أودم وأصلح بالهم وجمع قلوبهم والف كلنتهم
على طاعة وليه مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وما أمره به
مولاه من إسقاط الرسوم الجارية التي لا يرتضى صلوات الله عليه بإثباتها
عليكم ، وأن أجريكم في الموارث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه
وسلم واضع ما كان يؤخذ من بركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من
المتوفى بها فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال . وإن اتقدم في روم مساجدكم
وتزيينها بالفرش والايقاد وأن أعطى مؤذنها وقومتها ومن يؤم الناس فيها
أرزاقهم وأدرما عليهم ولا أقطمها عنهم ولا أدفعها إلا من بيت المال لا بإسالة
على من يقبض منهم وغير ما ذكره مولاه وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله
عليه عما ضعه كتابه هذا من ترسل حكم أيديهم الله وأصحابكم أجمعين بطاعة
مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه من أنكم ذكرتم وجوهاً التسم
ذكرها في كتاب أمانكم ، قد كرتها إجابة لكم تطميناً لأنفسكم . فلم يكن
لذكرها معنى ولا في نشرها قائمة ؛ إذ كان الإسلام سنة واحدة وشرعة منبئة
وهي إقامتكم على مذهبكم وأن تتركوا كل ما كنتم عليه من أداء المفروض في
العلم والاجتماع عليه في جوامعكم ومساجدكم وثباتكم على ما كان عليه سلف
الامة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين بعدهم وفقهاء الأئمة الذين جرت
الأحكام بمذاهبهم وقوام ؛ وأن يجري الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان
وفطره وقيام لياليه والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله في كتابه ونهيه
صلى الله عليه في سنته وأجرى أهل الامة كل ما كانوا عليه . ولكم على أمان
الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على الأيام وكرو
الأعوام في أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونسبكم وضياعكم وروابعكم وقلبيكم
وكثيركم ، وعلى الله لا يستقرض (عليكم) معترض ولا يتجنى عليكم متجن
ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتعمرون ويدب

عنكم وينح منكم فلا يتعرض إلى آذاكم ولا يمارع أحد في الاعتداء عليكم ولا في الاستعلاء على قريبكم فضلا عن ضعيفكم . وعلى أن لا أزال مجتهداً فيما يعمدكم صلاحه ويشملكم نعمه ويصل إليكم خيره وتتمنون بركتوه وتنتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . ولكم على الوفاء بما ألزمته وأعطيتكم إياه عهد الله وخليط ميثاقه وذمة وذمة أنبيائه ورسوله وذمة الأئمة موالينا أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم وذمة مولانا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه فتصرحون بها وتعلنون بالانصراف إليها وتخرجون إلى وتسلمون على وتكونون بين يدي إلى أن أهر الجسر وأنزل في المناخ المبارك وتحفظون وتحافظون من بعد على الطاعة وتثابرون عليها وتسارعون إلى فروضها ولا تخفلون ولألمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وتلزمون ما أمرتكم به وفقكم الله وأرشدكم أجمعين ، (١) .

هذا هو نص العهد الذي قطعه جوهر على نفسه وكتبه يده في اليوم الثامن من شهر شعبان سنة ٣٥٨ هـ وأشهد جماعة الحاضرين عليه . وفي هذا اليوم جلس أعضاء هذا الوفد على مائدة جوهر وذلك تمكيناً لأواصر المودة بينه وبين رجالات مصر خاصة وتأليفاً لقلوب المصريين عامة .

وهذه ميساة رشيدة من جانب جوهر ، تطوى على شيء كثير من الحكمة وبعد النظر . ونحن نعلم ما للسآءب من الأثر في حل المضلات السياسية والدينية . ونلاحظ في هذا الكتاب أموراً ثلاثة :

الأول : تمهد جوهر بنشر العدل وبث العلمانية في النفوس . وذلك بحماية مصر ضد هجمات المخبرين عليها . وكان لذلك العهد أهمية كبيرة . فقد امتدت الفتوح البيزنطية إلى بلاد الشام التي كانت خاضعة للدولة الإخشيدية ،

وكان من الطبيعي أن تمتد غاراتهم إلى مصر نفسها التي كان يهددها خطر القرامطة . ولا شك أن حالة الضعف التي وصلت إليها مصر بعد وفاة كافور ، وما نزل بها من وباء وما أسأبها من قحط من جراء انخفاض النيل — كل ذلك قد أدى إلى انتشار الفوضى في البلاد . ولم يحمل جوهر هذه الحالة السيئة التي وصلت إليها مصر ، فضرب على هذا الرتر الحساس ، وهو حماية الأهالي من قطاع الطرق وغيرهم من العابثين بالنظام والأمن العام .

الثاني : ترك الحرية للمصريين في إقامة شعائرهم الدينية والعمل على إصلاح المساجد وترميمها لاجتماع المسلمين فيها الصلاة والنظر في أمورهم . على أننا نرى جوهر لم يقلل الإشادة بذكر العلويين والاعتراف بأحققيتهم في الخلافة ومعنى ذلك تهديد السيل لفكر المذهب الشيعي مذهب الفاطميين هـ

الثالث : قيام جوهر بما تتطلبه البلاد من وجوه الإصلاح ، وذلك بتحسين السكة ومنع ماعصى أن يتطرق إليها من الفسح والزيف ، وإصلاح الجسور ، وتجميل البلاد ، وما إلى ذلك من الإصلاحات التي يعنى بها كل قانع مصلح .

وفي اليوم السابع من شهر شعبان عاد الوفد إلى القسطنطينية يحمل عهد الصلح ، وعرضه على الأهالي فلم يقبلوه . وحسم الإخشيديون وجماعة كافور والجند على مواصلة قتال الفاطميين ، وصعدوا إلى « نحرر » بقيادة جيوشهم ، فنزل إلى الجيزة وأخذ يستعد لملاقاة العدو (١).

وفي الحادي عشر من شعبان من هذه السنة وصل جوهر إلى الجزيرة وسار إلى مينة العيادين ، ثم استولى على المخاضة بمينة شلقان حيث عبر النيل إلى مدينة مصر ، فلاحق به جعفر بن قلاح (الذي تولى فتح الشام فيما بعد)

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٩ . ويحيى بن سعيد ص ١٣٢ و ١٣٣

فاستحثه جوهر على عبور النهر مع المغاربة ليكون قدوة لهم وقال له : لهذا اليوم أراذك المزمع فخلع جعفر ثيابه وعبر النهر مرتديا سراويله ، فتبعه المغاربة^(١).

لحق الإخشيدون المغاربة ودار القتال بين الفريقين فدارت العاترة على المصريين وقتل منهم خلق كثير . وكان من أثر هذه الهزيمة التي لحقت بالجنود المصرية أن عبر بعض قائلهم النهر وسلبوا إلى جوهر ، ومن ثم سهل القضاء على البقية الباقية من الجنود المصريين الذين ظلوا أمرا بابين على المخاضة لحراستها . فقد انتزع جوهر ملابسه الخارجية ، وعبر النيل مع رجاله في السفن ، وانقضوا عليهم وشتتوا شملهم (الثلاثاء ١٦ شعبان سنة ٨٢٥٨)^(٢).

وبذلك تم فتح مصر ودخلت في حوزة الفاطميين فانخذوها جسراً يعبرون عليه إلى المشرق لتحقيق أغراضهم السياسية والدينية . وقد تم ذلك الفتح بسهولة لم تكن منتظرة بفضل ما امتاز به جوهر من المهارة الحربية والسياسة .

وقد توقع المصريون أن يعاملهم جوهر معاملة من فتحت بلادهم عنوة فيقسم بلادهم بين الجند . لهذا لانعجب إذا رأينا المصريين يخشون عاقبة خروجهم على المهد الذي عرضه عليهم الوفد الذي أنابوه عنهم في مفاوضة جوهر في الصلح فيرجون أبا جعفر مسلم العلوى أن يتدخل في الأمر من جديد ويطلب الأمان من جوهر . وعلى الرغم من أن جوهر قد فتح هذه البلاد عنوة فقد عامل أهلها معاملة من فتحت بلادهم صلحاً ، كما عاملهم عمرو ابن العاص من قبل فتألف بذلك قلوبهم واكتسب محبتهم فدانوا له بالطاعة ورضوا بحكمه .

(١) ابن خلكان ١٥ ص ١١٩

(٢) أبو الحسن ص ٤٠٧ و ٤٠٨ والقيرى : اساطير الخفا ص ٧٢

وهنا ترى جوهر اقيم الدليل على بعد نظره وحسن سياسته . فقد عفا عن المصريين وأذاع على جنوده بياناً يحرم فيه عليهم الإتيان بأى عمل من أعمال العنف والشدّة ، كما جدد لأهل مصر الأمان وضمن لهم استتباب الأمن فى البلاد فى ذلك الكتاب الذى ينم عن أدب القائد الفاضل وتواضعه وهو فى كامل قوته وقوته . وهاك نص هذا المهدد بد البسطة نقلا عن المقرئى :

« وصل كتاب الشريف الجليل أطال الله بقاءه وأدام عزه وتأييده وعلوه وهو المهنا بما هنا به من الفتح الميمون فوقفت على مأسأل من إعادة الأمان الأول وقد أعدته على حاله وجعلت إلى الشريف أيده الله أن يؤمن كيف رأى وكيف أحب ويزيد على ما كتبته كيف شاء فهو أمانى وعن إذنى وإذن مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه . وقد كتبت إلى الوزير أيده الله بالاحتياط على دور المارين إلى أن يرجعوا إلى الطاعة ويدخلوا فيها دخلت فيه الجماعة ويعمل الشريف أيده الله على لقائى فى يوم الثلاثاء لسبع عشرة نخل من شعبان ،^(١) .

وبذلك زالت مخاوف الأهلين وأصبحوا فى أمن ودعة ، ولا سيما بعد أن طاف صاحب الشرطة السفلى بصحبة رسول جوهر يحمل علماً عليه اسم المدر لدين الله وأمننا الناس من جديد وأعلننا عدم مطالبهم بأية كلفة أو مؤونة فأنهض الناس وهدأت المدينة وعاد الأمن إلى نصابه . فلما كان العند (الثلاثاء ١٧ شعبان) خرج أبو جعفر مسلم العلوى والوزير جعفر بن القفراة وسائر الأشراف والقضاة والعلماء والتجار إلى الجيزة . فلما وصلوا إليها أقبل القائد جوهر فى عساكره ووقف الشريف عن يمينه والوزير عن يساره ، فصاح بعض حجاب جوهر « الأرض ، اقبلوا كلهم الأرض بين يديه هذا الشريف

والوزير . وتقدم الناس واحدا واحدا ، فلما فرغوا من السلام عليه عادوا إلى
النسطاط .

ولما غريت الشمس صرت الجنود لفاطمية الجسر وبين أيديهم العناديق
الملأى بالأموال محمولة على البغال . ثم أقبل جوهر في حلة مذهبة في فرسانه
ورجالته وهمكرو بحيشه في الموضع الذي اختط فيه مدينة القاهرة . وحين
ذهب المصريون في اليوم التالي لتهيئة جوهر وجدوه قد حفر أساس قصر
الحمر في الليل^(١).

ولما اتصل بالمرزبأ فتح مصر سر سرورا عظيما وأنشد محمد بن ماقه
شاعر بلاطه قصيدة طويلة مطلعها :

تقول بنو العباس هل فتحت مصر قفل لبني العباس قد قضى الأمر
قد جاوز الاسكندرية جوهر تصاحبه البشري ويقدمه النصر^(٢)

وهكذا زال سلطان الإخشيديين والعباسيين جميعا عن مصر وأصبحت
هذه البلاد ولاية فاطمية . فتدت الدولة الفاطمية تمتد من المحيط الأطلسي
غربا إلى البحر الأحمر شرقا . ، وناقت القاهرة حاضرة الدولة الفاطمية
الشيعية الفتية بغداد حاضرة الدولة العباسية السنية المتداعية . وقد كان لتلك
المنافسة أبعد الأثر في الحضارة^(٣).

وكان استيلاء الفاطميين على هذه البلاد الخطوة الأولى لم نفوذهم إلى
بلاد الشام وفلسطين والحجاز التي كانت جزءا من أملاك الدولة الإخشيدية
وبذلك تحقق الغرض الأول الذي كان يرمى إليه الفاطميون وهو إقصاء
دولة فاطمية في الشرق والغرب^(٤).

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ١ ص ١٢٠ والمقرئى : انماط الخفا

ص ٢٧

(٢) ديوان ابن ماقه الأندلسي ص ٦٨

(٣) Lane-Poole : The Story of Cairo, p. 119—120

(٤) Lane-Poole : The Muhammadan Dynasties, p. 71

باب الثالث

سياسة جوهر في مصر

فتح سورة :

قد ذكرنا أن الغرض الأول من استيلاء جوهر على مصر هو بسط نفوذ الفاطميين على المشرق . فإن استيلاءهم على مصر ممتد الوصول إلى بلاد الشام وفلسطين والحجاز ، وإنشاء دولة فاطمية في المشرق والمغرب ، حتى إذا تم لهم ذلك استطاعوا أن يمدوا نفوذهم إلى بغداد نفسها حاضرة الدولة العباسية في ذلك الحين .

كانت بلاد الشام في ذلك الوقت تابعة للدولة الإخشيدية . ولم يحمل الإخشيديون - وقد دلت دولتهم في مصر - ما كانت ترى إليه السياسة الفاطمية من الاستيلاء على بلاد الشام وفلسطين والحجاز . لذلك أعد الحسن ابن عبيد الله بن طنج الإخشيدى والى الرملة ودمشق العدة الملائكة الفاطميين ، فاستخلف شمو لا الإخشيدى على دمشق وسار هو إلى الرملة . على أن شمو لا لم يخلص الحسن ، وكتاب جوهر ا يدعو الحضور إلى دمشق ووعده العون على فتحها ، ثم تقاعد عن نصرته الحسن حين طلب إليه القدوم عليه ، في الوقت الذى وصلت فيه جيوش الفاطميين إلى فلسطين بقيادة جعفر بن فلاح ، من قبيلة كتامة من الهرير وأحد قواد المو الذين أرسلهم إلى مصر مع جوهر . فلما هزم جوهر على فتح الشام وفلسطين عهد إلى جعفر بالقيام بهذه المهمة لما اشتهر به من الشجاعة وحسن القيادة . هذا إلى أن جوهر ا أراد بذلك أن يبعد جعفر ا عنه ويطوح به في بلاد الشام حتى

لا ينافسه في مصر . فقد كان جعفر يرى في نفسه أنه أفضل من جوهر وأحق منه بإمرة مصر .

سار جعفر إلى بلاد الشام وكانب ولاية الأقاليم يدعوهم إلى طاعة المعز وبعدد حسن المسكافة ، ثم التقى جيش جعفر مع جيش الحسن بن ديبيد الله في الرملة ، فدارت الدائرة على الحسن وأسر هو وكثير من جنده^(١) ، ثم سيق إلى القسطنطينية بها ، ثم أرسل إلى بلاد المغرب فبقى بها حتى مات سنة ٣٧١ هـ .

استأنف جعفر بعد ذلك السير إلى طبرية لمحاربة قاتك الذي وليها من قبل الأخشيدين ، فاستولى على المدينة من غير أن يلقي مقاومة تذكر . ولما علم أهل دمشق باستيلاء جعفر على الرملة وطبرية خشوا بأسه ، فأوفدوا إليه جماعة من كبار رجالهم . وقد اتفق ووصلهم في اليوم الذي قتل فيه قاتك وإلى طبرية واشتعال نار الفتنة على أثر مقتله . فلم يحسن جعفر وقادتهم ، فمادوا إلى دمشق سائحين عليه وعلى جنده من المغاربة^(٢) . وهذا يفسر لنا الصعوبة التي لاقاها جعفر في استيلائه على دمشق .

بعد أن هزم جعفر بن عقيل ومن إليهم من العرب في حوران وطارذ الغالة منهم إلى حمص ، سارت جنوده إلى دمشق ، وكان شمولى قد تركها للملاقاة جعفر بطبرية . فاشتدت الفوضى في المدينة وهم الاضطراب واستولى الذعر على القلوب وحمل الناس السلاح ، وخرج أهل دمشق معاة وفرسانا لقتالهم . واستمر القتال طول يوم الجمعة حتى غروب الشمس ، ثم اشتد على أثر وصول جعفر إلى دمشق (١٠ ذى الحجة سنة ٣٥٨ هـ) . وحملت

(١) أبو العباس ٢٣ ص ٣٠٩

(٢) القريزي : اتعاظ الحنفا ص ٨١

المغاربة على جند الشام ومزموهم ، وقتلوا منهم عدداً كبيراً ثم دخلوا المدينة واستولوا عليها في المحرم سنة ٣٥٩ هـ ، ثم ألقوا النار في أسواقها ورحابها .

ولما رأى أهل دمشق مزعة جندهم وأنه لا قبل لهم بالفاطميين ، خرج بعض ذوى أهل الرأى والجاه منهم لمقابلة جعفر ، وطلبوا إليه العمل على إصلاح حال مدينتهم وإعادتها إلى ما كانت عليه . فقبض عليهم بعض المغاربة وسلبوهم ثيابهم وجرحوا كثيرين منهم ، فأنار هذا سخط أهل دمشق فشقوا عصا الطاعة وأذكروا نار الفتنة .

على أن هذه الفتنة لم تلبث أن نهدت أمام قوة جعفر ، ومن ثم لم يجد الأهليون بداً من أن يخطبوا وده . فنهبت جماعة منهم لمقابلته وطلب الأمان منه . فلم يقبل منهم جعفر ذلك حتى يخرجوا إليه ومعهم نساؤهم مكشوفات الشعور فيتمرضن في التراب بين يديه^(١) ، فرضوا بذلك صاغرين . على أنه لم يلبث أن هدأت ثائرته فتبسط معهم في الحديث واستقر الرأى بينه وبينهم على أن يصلى هو ورجاله يوم الجمعة في مسجد دمشق . وفي ذلك اليوم ركب جعفر في أصحابه ودخل المدينة وصلى بالجامع ، حيث حنف اسم الخليفة العباسى من الخنابلة وذكر مكانه اسم الخليفة الفاطمى ، وكان ذلك في المحرم سنة ٣٥٩ هـ^(٢) . وقد اتهم أصحاب جعفر فرصة وجودهم بالمدينة فنبهوا الناس ، فثار أهل دمشق عليهم وقتلوا كثيرين منهم . ولم يجد شيوخ المدينة بداً من مقابلة جعفر لإعلان استيائهم عما حدث وطلب الأمان من جديد ، فقال لهم : دخل رجال أمير المؤمنين للصلاة فقتلهم^(٣) . ثم هددم باستعمال

(١) المقرئى : انماط المختار ص ٨٢

(٢) أبو الحسن ٢٣ ص ٤٠٩

(٣) المقرئى : انماط المختار ص ٨٣

العنف والقسوة معهم، فبدأوا روعه وتلفوا منه في القول، حتى وعدم الغفر
إذا هم دفعوا دية من قتل. فجمعوا له الأموال الكثيرة حتى سامت حال المدينة
لما نزل بأهلها من الإرهاق.

من ذلك يتبين لنا هوادة جعفر في ضبط جنده وكبح جماحهم حتى بلغ بهم
الاستهتار بمركز القيادة أن كانوا يعترضون وفود الصلح والسلام من أهل
دمشق، فيقتلونهم ويسلبون أموالهم ونياهم، مما أثار نقوس الأهلين عليهم
ووقف حجر مؤثر في سبيل فتح هذه المدينة. وهذا يوضح لنا حكمة جوهر
وبعد نظره وحسن سياسته. فانه لما دخل الإسكندرية أمر جنده بالكف
عن أعمال السلب والنهب حتى دانت له البلاد وألقت بزمامها إليه، مع أن
جنود جوهر من المغاربة الذين تم على أيديهم فتح مصر، هم جنود جعفر بن
فلاح الذين وجههم جوهر لفتح بلاد الشام وفلسطين.

وقد رأى جعفر أن الاضطرابات لن تهدأ في دمشق وأنه لن يستطيع
توطيد سلطان الفاطميين فيها، إلا بالانضمام إلى زعماء الفتنة، فأرسل جنده من
المغاربة في طلبهم، فقبضوا عليهم، فأمر جعفر بهم ففرضت أعناقهم وصلبت
جثثهم وعلقت رموسهم على الأبواب، وكان من بين هؤلاء اسحق بن عسودا
ولم ينج منهم إلا أبو القاسم بن أبي يعلى العباسي وعمد بن عسودا، وكانا من
أظهر زعماء الثورة. أما ابن أبي يعلى فقد هرب من الشام يريد بغداد، فقبض
عليه عند تدمر وأرسل إلى جعفر حيث شهر به. فحمل على جمل وفوق رأسه
قلنسوة وفي لحية ريش، ويده قضبة^(١) ثم يمت به إلى مصر. وقد ذكر
أبو المحاسن^(٢) أن الشريف أبا القاسم لما هرب إلى بغداد، قال ابن فلاح «من
أتاني به فله ألف درهم». فلقبه ابن خلبان المدوى فقبض عليه وسأله إلى

(١) المقرئ: التماط المنقأ ص ٨٢

(٢) ٢٥ ص ٤١٠

ابن فلاح فشر به. ثم طلبه ليلا وقال له : « ما الذى حملك على ما صنعت ، ومن تدبك إلى ذلك ؟ » فقال أبو القاسم : « ما حدثني به أحد وإنما هو أمر قد فرق له جعفر ووعدته بأن يكاتب فيه القائد جوهرأ . ولا غرو فقد كان ابن فلاح يحب العلويين ، فأحسن إليه وأكرمه . أما محمد بن عسودا فقد لحق بالقرامطة في الأحساء هو وظالم بن موهوب الثقلي والى حوران من قبل الإخشيديين .

وبذلك تم فتح بلاد الشام وفلسطين ، ودان أهلها لسلطان الفاطميين ، فتحقق النرض الذى كانت ترى إليه السياسة الفاطمية من فتح مصر واتخاذها جسرا يسهر عليه الفاطميون إلى بلاد المشرق . على أن فتح هذه البلاد ، وإن كان قد تم على يد جعفر بن فلاح ، فقد كان لسياسة هذا القائد ، وما ارتكبه من أعمال العنف والشدّة وإطلاقه العنان لجنده للعبث بالنظام والاستهتار بأرواح الأهلين ، أثر سيء في صرف قلوبهم عنه ومشايبة زعمائهم وتأمرم ضده وضد جنده من المغاربة . ومن ثم كانوا لا يدعون فرصة تمر دون أن ينتهزوها للخروج على سلطان الفاطميين . وقد ظهر أثر هذه السياسة الحرقاء في استنجد أهل الشام بالقرامطة وأتشكين بما ستفصله بعد .

تهريب سلطان الفاطميين في سورية :

كانت دمشق قبل استيلاء الفاطميين عليها تدفع لأويم القرامطة الحسن ابن احمد جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار . فلما استولى عليها الفاطميون قطعوا الجزية عنه ، فغضب القرامطة على إكراههم على دفعها . ولم يرد الحسن القرمطي في أن يطلب التحالف مع الخليفة العباسي السني في بغداد ضد الفاطميين الشيعة في مصر . يد أن الخليفة العباسي قد رفض التحالف معه . ففكر الحسن في استئجار بني بويه إليه ، وكانوا أصحاب النفوذ القوي في بلاد العراق ،

فرفض هؤلاء أيضاً أن يحالفوه ؛ ولم يقبل التحالف معه سوى أمير الرحبة^(١) من الحدادين وبعض القبائل العربية^(٢).

وقد سار الحسن القرطبي الملقب بالأعصم إلى الدكة^(٣) حيث اشتبك هو وجند جعفر فاستهان به جعفر ، ولكن جنده لم تلبث أن تغاذلت عنه وانقضت من حوله ، فهزم ثم أسر وقتل هو وكثير من أتباعه (٦ ذى الحجة سنة ٥٣٠ هـ) وقد عثر محمد بن عسودا على جثته خارج دمشق فقطع رأسه وصلبه على حائط داره ، انتقاماً لأخيه إسحق الذي قتله جعفر وصلبه^(٤).

بذلك انتهت حياة القائد الذي نشر سلطان الفاطميين في سورية وانتزعها من يد الإخشيديين وأذل زعماء الثورة التي قامت في وجهه .

وقد عزى المقرئى ما حل بجعفر بن فلاح إلى ما ارتكبه من الخطأ وسوء التدبير والتباهى بنفسه ، حتى ترفع عن جوهر وعز عليه أن يكاتبه وكاتب المزم موقفاً في جوهر ، مينا ما بذله من الجهد في فتح بلاد الشام وفلسطين^(٥) . فلما وصلت كتب جعفر بن فلاح من الشام إلى المزم وهو يلاذ المغرب ، لم يفضها وأمر بردها إليه مع كتابينه يفيه إلى ما ارتكبه من سوء التصرف وبأمره بمكاتبة جوهر باعتباره رئيسه المباشر ، وذلك على الرغم من مكاتبة جعفر في قصر المزم ، تلك المكاتبة التي لم تفقده شيئاً بجانب تمسك المزم بجوهر وقتته به لشدة إخلاصه وحسن بلائه . ولما علم جوهر بذلك غضب على جعفر . وكان لذلك أثر عظيم فيما صادف جعفر من الصعاب في

(١) الرحبة : بلدة واقعة على نهر الفرات

(٢) أبو الفداء : المختصر في أخبار البشر ج ٢ ص ٣٢٥ ، ٣٥٠ ، ٥٠٩

(٣) الدكة : بلدة واقعة على نهر يزيد على مقربة من دمشق .

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ١٤١

(٥) الخط ج ١ ص ٣٧٨

فتوحاته ، إذ أنه أحجم عن مكاتبة جوهر وطلب الإمداد منه خفية أن يتقاعد من نصرته . وظلت الحال على ذلك حتى قدم الحسن بن أحمد القرمطي وأوقع بجعفر وأرداه قتيلاً . وقد وجد على باب قصر جعفر بدمشق بعد موته هذان البيتان :

يا منزلا حيث الزمان بأهله فأبادم بفرق لا يجمع
أين الذين عهدتهم بك مرة كان الزمان بهم يخر وينفع

وهكذا استولى الحسن القرمطي على دمشق ، واحتفل بانتصاره فيها ، ولعن الخليفة الفاطمي المزمع على منبر المسجد الأموي بدمشق . وقد حلق الدكتور De Lacy O'Leary على ذلك بقوله : « يعتقد القرامطة بنظرية الحق الإلهي للإمام الفاطمي . ومن ثم يبدو هذا اللعن غريباً ، وقد يرجع هذا إلى أهل دمشق أنفسهم الذين كانوا سنيين ظاهرين في عدائهم للشيعنة أو إلى القرامطة الذين لم يعودوا يحفلون بشرف الالتقاء إلى آل علي والذين لا يكتفون بالاعتبارات الدينية أيا كانت »^(١) .

(١) أفتكين

كان أبو منصور أفتكين التركي الشراقي خلافاً لمز الدولة أحمد بن بويه . ولم يزل يترقب حتى عظم شأنه في بغداد وطلب حل من الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه . فلما سار الأتراك من بغداد لقتال الديلم اشتهر أفتكين بالكشاعة والإقدام ، إلا أن أصحابه انقضوا من حوله وتركوه ولم يبق معه سوى طائفة قليلة العدد . فسار إلى الرحبة في نحو أربع مائة رجل . فغضب العرب ، وخرج إليه ظالم بن موهوب العقيلي من بنيك ، بعد أن بعث إلى أبي محمود إبراهيم بن جعفر وإلى دمشق من قبل الخليفة المزمع لدين الله الفاطمي يعلمه

بأن أفتكين قد قادر بغداد وأنه في طريقه إلى دمشق لإقامة الخطة الخليفة العباسي . فأرسل إليه وال دمشق جيشا سار نحو حوشبة لمقابلة أفتكين الذي أمده أبو المال بن حمدان بجيش كبير . فلما رأى ظالم أنه لا قبل له بمنازلاته حاد إلى بلبيك . وسار أفتكين إلى حمص ، فلقاه أبو المال بالقبول وأكرم وفادته .

وقد ثار في ذلك الحين بدمشق جماعة برعامة ابن المارود وحماديو اولاة المزم واشتد خطرهم . فلما بلغتهم خبر خروج أفتكين بشوا إلى مصر يدعونه ويسدونه باذكار نار الثورة وأن يكونوا معه على جند المزم وعونا له على إخراجهم من دمشق ليصبح هو واليا عليها^(١) . ولا فرو فقد كان أهل دمشق خاصة وأهل الشام عامة يكرهون المخاربة لمخالفتهم لهم في المذهب الديني من جهة ، وسوء سياسة الفاطميين في بلادهم من جهة أخرى . ومن ثم سار أفتكين حتى وصل بنية العقاب في أواخر شعبان سنة ٣١٤ هـ^(٢) .

دخل أفتكين دمشق من غير حرب وأقام فيها أياماً ، ثم سار لقتال ظالم ابن موهوب العقيلي . فمر ظالم من وجهه ودخل أفتكين بعلبك . وكان الروم قد سبقوه إليها ، فاقهروا فرصة دخوله بها ، فقبضوها وانتشروا فيها يهرقون ويسرقون ويقتلون (رمضان سنة ٣١٤ هـ) . ثم قصدوا دمشق ، وكان أفتكين قد وصل إليها ، فقابلهم أهلها وطلبوا إليهم الرحيل في مقابل مال يؤديه إليهم ؛ ثم استقبلهم أفتكين وأخبرهم أنه لا يستطيع جباية الأموال لنفوذ ابن المارود وأصحابه بها . فأمر إمبراطور الروم بالقبض على ابن المارود . واشتد أفتكين في جباية الضرائب حتى جمع ثلاثين ألف دينار ، أخذها

(١) القريزي : الخطط ج ٢ ص ٩ .

(٢) ابن القلائسي : ذيل تلويح دمشق ص ١٦ .

الإمبراطور وذهب إلى طرابلس . ورجله عن دمشق قوى نفوذ أفتكين فيها ودعا للطائع العباسي ^(١) .

وفي ذلك الحين ظهر القرامطة على مسرح السياسة للمرة الثانية ضد الفاطميين الذين طالما نفى القرامطة بأنهم من مذهبهم وبأنهم ينشرون الدعوة لهم . فقد استدعاهم أفتكين من الأحساء لمعاونته على قتال الفاطميين . فقدموا دمشق في سنة ٢٦٥ هـ ، ومعهم كثير من أعوان أفتكين الذين شنت للمز شلمهم ؛ فقوى بذلك نفوذهم ، واجتمعوا على إخراج الفاطميين من هذه البلاد .

ترك القرامطة وأفتكين دمشق إلى الرملة فزلوا بها ، وهاجموا يافا . ثم واصل أفتكين سيره على ساحل البحر الأبيض المتوسط حتى وصل إلى صيدا ، وكان بها ظالم بن موهوب العقيلي وابن الشيخ واليها من قبل المز . فقاتلهم ابن الشيخ قتالا شديدا ، وقتل من الفريقين نحو أربعة آلاف رجل . وانتهى القتال بهزيمة ابن الشيخ وتراجع ظالم إلى صور . وقد انتقم أفتكين من جنود للمز قطع أيدي القتلى وأرسلها إلى دمشق ، فطيف بها ، ثم سار إلى عكا وبها حامية المز .

وهكذا تفاقم خطر القرامطة وأفتكين في الشام واستعصى أمرهما على الفاطميين ؛ ولم يتم القضاء عليهما إلا في عهد العزيز الفاطمي على يد جوهر ، وهو ما ستفصله في الباب الخامس .

(١) المقرئى : النقط ج ٢ ص ٩ .

صرب جوهر غارات القرامطة من مصر:

خشي جوهر ، بعد استيلائه على مصر ، خطر القرامطة لما كان يراه من تخريبهم وتدميرهم الولايات العباسية وغيرها من الأقاليم التي أغاروا عليها ، وكذا تعرضهم لقوافل الحجاج وسلبهم أموالهم . فقد ذكر المقرئ أن السبب الذي حدا بجوهر إلى تأسيس القاهرة هو خوفه من غارات القرامطة على مصر وتوقعه هذه الغارات من حين لآخر . ومن ثم بنى سور القاهرة وحطم بين جوانبه النقط التي تكونت منها القاهرة المخرقة ليكون هذا السور حائلاً منياً ضد هجمات القرامطة^(١) . وقد صدق حدس جوهر ، فقد هدده القرامطة مصر من ناحية الشرق بعد اشتباكهم مع الفاطميين في الشام واستردادهم دمشق من جعفر بن قلاح وأسرده وقتله .

سار الحسن بن أحمد زعيم القرامطة إلى الرملة ، حيث انضم إليه كثير من الإخشيديين بعد أن هرب واليها سعادة بن حبان الذي ولاه عليها جوهر في شوال سنة ٣١٠ هـ إلى يافا . ثم استأقف الحسن مسيره إلى مصر فوصل إليها هلال ربيع الأول سنة ٣١١ هـ^(٢) ، ودخل مدينة القلزم (السويس) وأسر واليها عبد العزيز بن يوسف^(٣) ونهب ما كان يملك من الخيل والإبل ثم هاجم القرما ودخلها على حين غفلة من أهلها في المحرم سنة ٣١١ هـ . فكان بذلك صاحب النفوذ في برزخ السويس ، واعترفت بسلطانه مدينة تيس وخرجت على واليها . وقد وزعت المنشورات في جامع عمرو لحض الناس

(١) المخطوط ١٣ ص ٢٥٧

(٢) أبو الحسن ٤٣ ص ٤٣٢

(٣) في ذبيان المتنبي أبيات كثيرة من الشعر عن عيد العزيز هذا . ولا غرو فإن المتنبي هو الذي سئل في طريق المروب من مصر وأحالاه عنده

على حصيان جوهر . ثم أمن الحسن السير في داخل البلاد وعسكر برجاله في عين شمس (عليوبوليس) وحدد القاهرة^(١) .

ولما سمع جوهر بوصول الحسن إلى برزخ السويس بدأ يستعد لقتاله . فحفر خندقاً أقام عليه بابين من الحديد كانا على ميدان الإخشيد ، وبني قنطرة على الخليج ووزع السلاح على المغاربة والمصريين . ثم بعث جوهر رجلاً من عنده إلى معسكر القرامطة تظاهروا بالسخط على الفاطميين والرغبة في التخلص من حكمهم ، وما زالوا يبدون بذور الفتنة بين القرامطة حتى انتشرت الفوضى في جيوشهم ودب الانقسام في صفوفهم^(٢) .

وقد بدأ القتال مع القرامطة في أوائل ربيع الأول عند باب القاهرة ، وقامت بين الفريقين معركة أسر وقتل فيها عدد كبير من الجانبين . وظلت الحرب بينهما سجالات حتى حاول زعيم القرامطة وقائد جيوشهم الحسن بن أحمد الاستيلاء على الخندق ضوة ، وكان باب القاهرة حينئذ مغلقاً . فلما غربت الشمس أمر جوهر بفتح الباب . فابتدأ القتال ، واستمرت نار الحرب التي انتهت بهزيمة القرامطة وارتدادهم إلى القلزم^(٣) .

وقد أظهر جوهر في هذه الحروب شجاعة نادرة ومهارة فائقة . فقد حمل على القرامطة حملة صادقة فردم على أعقابهم مدحورين مهزومين بعد أن كادت البلاد تقع في أيديهم وتعرض لكثير من الويلات والمحن . وليس أدل على مبلغ استياء جوهر منهم وحقه عليهم من إعلانه في البلاد عقب رحيلهم إلى القلزم مكافأة كل من آتى له بقرص على رأسه بثلاثة آلاف دينار

(١) G. wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte, P. 82

(٢) المقرئى : انطاك المنفا ص ٩٣ .

(٣) أبو القلاص : ص ٢٣ ، ١١٧ ، ١١٨ ، المقرئى : انطاك المنفا

وخمسين خلعة وخمسين سرجاً^(١) . وقد استولى المصريون على مازكة القرامطة من الأسلاب في ميدان القتال .

ولاشك في أن جوهر أمدن بالنصر لما قام به الجند المتطوعة من المصريين من الفطاح المجيد ؛ فقد رأوا بلادهم مهددة بالغزو ، وأمورهم معرضة للضياع وأرواحهم للهلاك . فصدوا القتال حتى ردوا القرامطة ، ثم انتقموا من مالا العدو من الجند الإخشيدية ، فأسروا وقتلوا عدداً كبيراً منهم . وفي ذلك يقول ابن القلانسي « وتلدى جوهر في الإخشيدية فاجتمعوا ، فعمل لهم طعاماً وحلف لهم على المصافاة ، ثم قبضهم وقيدهم وحبسهم^(٢) ، وكانوا ألقا وثلاثمائة مقاتل^(٣) .

كان هؤلاء الجنود مصدر الشغب وإثارة الفتن والقتل في البلاد . فرأى جوهر أن الأحوال لا تستقيم بإطلاق الحرية لهم . وهذا يفسر لنا عدوه من العهد الذي قطعه على نفسه بمصافاتهم ، ولم يربداً من منع أذاً بمقتضاهم من الجمهور .

ولما سمع المعز وهو يولد المغرب خبر غزو القرامطة مصر ، أرسل جيشاً من القيروان تحت قيادة أبي محمد الحسين بن عمار . فزادت قوة جوهر الحرية وهزم على إصناح مدينة تليس والانتقام من سكانها الذين والوا القرامطة وانضموا إليهم . فسار إليها وأخضع أهلها ولكنه عفا عنهم . ثم رجع أسطول القرامطة من النيل بعد أن خسر سبع سفن حربية وخمسة أسير ، وعاد الحسن إل دمشق ليتأهب للقتال من جديد^(٤) .

(١) المقرئى : اتساظ الحنفا ص ٨٦

(٢) وقد أطلق المعز سراحهم حين قدم مصر سنة ٣٦٢ هـ : المقرئى : اتساظ

الحنفا ص ٩١

(٣) ذيل تاريخ دمشق ص ٢

(٤) De Lacy O'leary : The Fatimid Khalifate p . 100 .

ولما وصل المزم إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ رأى أن ملكه لا يزال معرضاً لخطر
القرمطة . فاتهم ما قشوا يهددون مصر ، ويتابعون الإغارة عليها لانتزاعها من
الفاطميين . فأرسل المزم إلى الحسين بن أحمد القرمطي كتاباً عنوانه :

« من عبادة وولي وخيرته وصيغه مد أبي تميم المزم الدين الله أمير
المؤمنين رسالة خير التبيين ونجل على أفضل الوصيين إلى الحسن بن أحمد »^(١).

وقد بدأ المزم هذا الكتاب « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وذكر الحسن
فيه بسنة الأوائل الابتداء بالاحذار والانتبا بالإفكار ، كما ذكره أن جديده
أبا سعيد وأبا الطاهر كانا يدينان بنفوذهما للفاطميين ويمتثلان مذهبهم . ثم
تدد بسياسة الحسن وأظهر حنقه عليه واستيائه منه في تلك المباراة : « أما أنت
أيها القائد الخائن الناكث البائن على هدى آباءه وأجداده ، المنسلخ من
دين أسلافه وأنداده ، والموقد لنار الفتنة ، والمخرج عن الجماعة والسنة ، فلم
أغفل أمرك ، ولا خفي عن خيرك ، ولا استقر دوني أثرك . وإليك متى ينتظره
وفي نهاية الكتاب عرض عليه المزم ثلاث خصال لينتار نفسه منها واحد :
إما أن يرد جميع ما استحوذ عليه من الأسلاب في حروبه مع جعفر وجنده
يدمشق وسعادة بن حيان ورجاله بالرملة ، وإما أن يردم أحياء ، وهو ما
لا قيل له به ، وإلا أن يسير هو وأتباعه إلى المزم فيحكم عليهم بالقصاص
أو القنذية .

وقد رد الحسن على ذلك الكتاب الطويل الذي بحث به الخليفة الفاطمي
إليه بتلك الكلمات : لقد تسلى كتابك الملوء بالافتاظ ، الخال من المعاني
وسياتيك جوابي .

ويظهر لنا أن الحسن القرمطي كان ينوى إعادة الكرة والإغارة على

(١) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ص ٢

من جديد . ولم يصرفه عن ذلك تلك الهزيمة التي حلت به على يد جوهر ، بل
ولم يرهبه ما أظهره المزم في كتابه إليه من التباين بقوته والاستخفاف بجند
عدوه . يتضح لنا صحة هذا القول من هذين البيتين اللذين نظمهما الحسن
بعد هزمته :

زحمت رجال العرب أني هبتها فدى إذا ما بينهم مطاول
يا مصر إن لم أسق أرضك من دم يروى ثراك فلا سقائي النيل^(١)

وقد ظهر القرامطة في شهر ربيع الثاني سنة ٢١٢ هـ للمرة الثانية في حين
شمس ، وعاونهم أنصار الإخشيديين الذين انتشروا في جميع أنحاء مصر . فبعث
المروانية عبدالله إلى الوجه البحري على رأس جيش عظيم من أربعة آلاف
مقاتل ، هزموا القرامطة في عدة وقائع . غير أن هذه الهزائم المتكررة لم
تقت من عند القرامطة . فقد اجتمعت أمام التندق الذي حفره جوهر
وأعدوا المعدات لاجتيازه^(٢)

وقد استطاع الخليفة الفاطمي بواسطة جواسيسه أن يفسد قبيلة بني طي
من العرب ، فرشا زعيمها حسان بن جراح الطائي . وكانت هذه القبيلة أقوى
الناصر في جيش الحسن القرمطي . وبذلك نجحت سياسته في فصل هذه
القوة الكبيرة عن القرامطة . وقد خصص المزم لذلك مائة ألف دينار .
ولما لم يكن في بيت المال من الدنانير ما يكفي لتحقيق هذه الفكرة ، أمر
المزم بضرب نقود زائفة من الرصاص ، مغلفة بطبقة رقيقة من الذهب ،
وضمعت في أكياس ووضع في أحلاما قليل من الدنانير المضروبة من الذهب
النخالص . فلما استمرت نار الحرب بين القرمطين انصرف بنو طي ، وولى

(١) القرمطي : انماط المختار ١٢٣ - ١٢٤

Lane-Poole : A History of Egypt in the Middle Ages, P. 113 (٧)

ابن الجراح منهزماً ، وتشقت شمل القوة التي بقيت مع الحسن القرمطي ،
فتب معسكره وقتل من أتباعه نحو ألف وخمسة و ذلك في رمضان سنة ٣١٣هـ
ومن ذلك الوقت بدأت قوة القرامطة في الضعف لوقوع النزاع بينهم ، فارتدوا
عن مصر إلى غير رجعة (١).

الدعوة الفاطمية في مصر :

كانت القيروان أو المهديّة لاتصلح حاضرة للدولة الفاطمية ، لبعدها عن
الولايات الإسلامية التي كان الفاطميون يتطلعون إلى الاستيلاء عليها ، كالإمام
وقلسطين . ولما كانت مصر واسطة التقدير بين الأمم الإسلامية ، فضلاً عما
اشتهرت به من الخصب ونماء الثروة ، فكر المهدي الفاطمي في غزوها
وجعلها حاضرة للدولة الفاطمية بعد أن وطد سلطانه في بلاد المغرب . ولا
غرو فإن فكرة غزو هذه البلاد قديمة توارثها الخلفاء الفاطميون بعضهم عن
بعض . فإن امتلاك مصر مناه نشر عقائد المذهب الفاطمي في ثلاثة من
الحواضر الإسلامية الكبيرة : وهي المدينة والفسطاط ودمشق ، فقد كان كل
من الشام والحجاز تحت سلطان مصر في ذلك الحين .

غزت جيوش المهدي الفاطمي هذه البلاد ثلاث مرات : أما الأولى ففي
سنة ٣٠١هـ ، والثانية ابتدأت سنة ٣٠٧هـ ولم تنته إلا سنة ٣٠٩هـ في حين
ابتدأت الغزوة الثالثة سنة ٣٢١هـ واستمرت حتى عهد القائم بن المهدي
سنة ٣٢٤هـ .

وهذه الغزوات ، وأن كانت قد فصلت من الوجهة الحربية ، إلا أنها قد
مهدت السيل لنشر الدعوة الشيعة في مصر . فقد أصبح فيها عدد كبير يعترف
على تلك الدعوة ، وكتبوا الفاطميين وطلبوا إليهم غزو مصر ووعدهم العون

على فتحها . يدل على ذلك الخطبة التي ألغاهما المزم على رؤساء كثافة قيل
رحيل جوهر إلى مصر . فقد جاء فيها : « واني مشغول يكتب رد على من
المشرق والمغرب أجيب عليها بخطي »^(١) . وما ذكره أبو الحسن من أن
القيسين في مصر أرسلوا إلى المزم كتباً جاء فيها : « إذا زال الحجر الأسود »^(٢)
فقد ملك مولانا المزم الدنيا كلها »^(٣) ، وكان لهذه المكاتبات التي دارت
بين المصريين والمزم أثر عظيم في تسهيل فتح مصر على يد جوهر »^(٤) . ثم هذه
الآيات التي نظمها ابن مهران بمن شهد هذه الحوادث من الشعراء ، تنقلها
عن الكندي :

وقد حشدوا المهر ودون مصر (٤) خرط القناد وأى خرط
وأقبل جاملا حتى تخطى وجز بمهله حد التخطى
يكتب جماعة قد كاتبوه من أقباط بمصر وغير قبلى
وكل كاتبوه وناقنونا وكل في البلاد له موطن^(٥)

ويظهر أن الدعوة الفاطمية في مصر قد انتشرت وجذبت إليها كثيرين
من الأنصار ، حتى إن ذكا الرومي والى مصر (٣٠٣ - ٣٠٧ هـ) قد خشي
استفحال أمر هذه الدعوة . فأخذ في اضطهاد القائمين بها ، فسجن كثيرين
منهم وفكّل بهم .

ولاشك أن الدعوة التي طوى قد صادفت نجاحا عظيما في مصر ، فقد
أصبح فيها عدد غير قليل يعتنق المذهب الشيعي ويعمل على نشره . ويرجع

(١) القرطبي : أتماط الخنفا ص ٦٠ - ٦٦

(٢) يتصدون كلفورا الذي كان يتم له حكم مصر إذا ذلك

(٣) ص ٢٤٣

(٤) القرطبي : أتماط الخنفا ص ٦٦

(٥) كتاب الولاية وكتاب القنادة ص ٢٧٢

ذلك إلى ما كان من إدماج الفاطميين في صفوف جندهم ، الذين أوفدوهم لفتح مصر ، دعاء يهدون إليهم الاختلاط بالناس وتعليمهم عقائد المذهب الفاطمي . أضف إلى ذلك ما قام به الخلفاء الفاطميون من تشجيع هذه الدعوة ، بإرسال الكتب بخطهم مذية بإمضاءاتهم لهذه البلاد يدعون الناس فيها لاهتق العقائد الفاطمية . فقد كتب الخليفة الفاطمي القائم (٣٢٢ - ٣٢٨ هـ ، ٩٣٤ - ٩٤٥ م) كتاباً بيده إلى محمد الإخشيد وإلى مصر يدعو إلى إقامة الخطبة للخليفة الفاطمي وإزالة اسم الخطبة العباسي منها . غير أن هذا الكتاب لم يكن له أثر يذكر في نفس الإخشيد ، فأهمل رسول الخليفة القائم ولم يجب على هذا الكتاب بشيء .

على أن إرسال الخليفة العباسي محمد بن رائق النعماني إلى الشام لأخذ مصر وطرد الإخشيد منها قد أحفظ الإخشيد وأثّر حقيقته . فبدلت مدة الهدنة التي كانت تربطه بالخليفة العباسي إلى عهد مستحكم . فأمر الإخشيد بإيقاف الخطبة للخليفة العباسي وإقامتها للخليفة الفاطمي .

وقد روى ابن سبيد نقلاً عن عمر بن الحسن الخطيب العباسي في مصر أن الإخشيد قطع الخطبة للخليفة العباسي وأمر بذكر الخطبة الفاطمي عليه . وذكر أن السبب في ذلك هو ما اتصل بالإخشيد عن مسير ابن رائق لتسلم مصر منه بأمر الخليفة العباسي ، مما أثر في نفس الإخشيد ، فأمر الخطيب بالدعوة للقائم الفاطمي (١) .

وسواء صحت هذه الرواية أو تلك ، فقد كان ذلك خطوة كبيرة للاعتراف بسلطان الفاطميين الذين زاد عدد أتباعهم في هذه البلاد .

على أن الخطيب العباسي لم يبين لنا إذا كانت الخطبة قد أقيمت فعلاً للخليفة الفاطمي . فإن المؤرخين لم يكشفوا لنا عما إذا كان اسم الخليفة العباسي قد

حذف من الخطبة بالفعل ، إذ لو قطعت الخطبة للخليفة العباسي لما ضن المؤرخون بموافقتنا بهذا الخبر لأهميته وخطورته . فإن ذكر اسم الخليفة في التلمبة وقفه على السكك من أم مظاهر الخلافة في الولايات الإسلامية .

إلا أن ضعف الخلافة العباسية في ذلك الوقت ، وذلك العداء المستحكم بين الخليفة العباسي والإخشيدي ، وقيام علاقات المودة بين الإخشيدي والفاطمي ، وظهور فريق من المتشيعين في مصر يعمل على نشر المذهب الفاطمي - كل ذلك يجعلنا نميل إلى القول بأن الإخشيدي قد قطع الخطبة للخليفة العباسي المطيع ولو إلى حين .

وقد ظلت علاقات المودة قائمة بين مصر وبلاد المغرب ، حتى أن الإخشيدي عرض على القائم أن يزوجه ابنة المنصور من ابنة الإخشيدي . فوافق القائم على ذلك وبعث بموافقته إلى الإخشيدي . فأرسل هذا إليه صدقاً قدره مائة ألف دينار . فاستقل القائم هذا المبلغ ، ومن ثم توترت العلاقات بين الإخشيديين والفاطميين .

هذا ما رواه لنا ابن سببر ونحن نشك فيه كل الشك . إذ كيف يعقل أن يعرض الإخشيدي ، وهو أحد ولاة الخليفة العباسي ، أن يزوجه ابنة من ولي عهد الخليفة الفاطمي الذي كان يضمر له العباسيون الكراهية والبغضاء . ولعل الخليفة العباسي قد سدد ابن رائق لتسلم زمام مصر من الإخشيدي حين اتصل به بآ هذا الزواج ، فسدل الإخشيدي عن المعنى في هذا السيل : ومات هو والخليفة الفاطمي بعد قليل ، واشتغل ابن المنصور بالقضاء على ثورة أبي يزيد ومن ثم فشل مشروع الزواج وانقطعت العلاقات الودية بين مصر وبلاد المغرب .

ولم يحاول الفاطميون غزو مصر في البقية الباقية من خلافة القائم (٣٢٢ - ٣٣٤ هـ) وطوال عهد المنصور (٣٣٤ - ٣٤١ هـ) . لأن قيام الثورات التي

أَذكى نيرانها الخوارج — ولا سيما ثورة أبي يزيد — قد استنفدت جهود الخليفة كما استنفدت كل موارد البلاد المالية .

وظلت الحال كذلك إلى أن جاء الخليفة المزمع رابع الخلفاء الفاطميين ، محاول إعادة الكرة لغزو مصر . وقد سارت جيوشه إليها في عهد كافور الإخشيدي ، ووصلت إلى حدود هذه البلاد الغربية ، حيث حالت الجيوش المصرية دون تقدمها داخل البلاد ، على الرغم من استقباله في بلاطة دعاة الفاطميين الذين أرسلهم المزمع ليعتوه هو ورجال بلاطه وموطني دولته للدخول في طاعة الخليفة الفاطمي . وقد أخذت البيعة للمزمع من معظم رجال الإخشيديين والكافورية وسائر الأولياء والكتاب^(١) .

وما يدل على اهتمام كافور بشتون الأشراف في مصر هذه الحساسة التي نزوها عن ابن سعيد^(٢) الذي يقول إن كافور كان راكبا في موكب فسطط سوطه فتاوله إياه أحد الأشراف^(٣) . فقبل كافورا يده وقال له : نيت إلى نفسي فأبعد أن تاولني وله رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطي خاية يستشرف لها .

وما أثر عن كافور أن امرأة اعترضته في طريقه وصاحت به : « ارحمني برحمتك الله ! ، قدضيا أحد رجاله دفعا عنيفا ، فسقطت . فغضب كافور غضبا شديدا ، وأمر بقطع يد هذا الرجل ، فشقت له المرأة . فأمر كافور أحد رجاله أن يسألها عن أهلها ونسبها . فأنصت أنها حلوية . فأسف كافور على ما حدث ثم أغدق الحبات والأرزاق عليها وعلى غيرها من نساء الأشراف^(٤) .

• • •

(١) المقرئى : المخطوط ٢ ص ٢٧

(٢) ص ٤٧

(٣) ذكر السيوطي في كتابه حسن الخاضرة في أخبار مصر والقاهرة (٢ ص

ص ١١) أن هذا الشريف هو أبو جعفر مسلم العلوي

(٤) ابن سعيد ص ٤٨

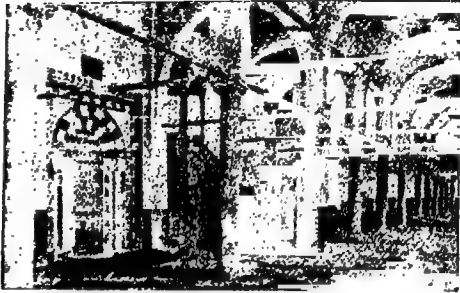
لما تم الفاطميين فتح مصر سنة ٥٣٥٨ (سنة ٩٦٩ م) أخذ جوهر في بث الدعوة الخليفة الفاطمي خاصة ولأهل بيته من العلويين عامة . على أنه لم يوفق في تنفيذ هذه السياسة توفيقاً تاماً . فقد كان السواد الأعظم من المصريين يمتنع المذهب الشيعي ، في حين كان الشيعة أقلية صغيرة بالنسبة إلى أهل البلاد .

وبعد أن فرغ جوهر من وضع أساس مدينة القاهرة أمر بإلغاء الخطبة للمبشرين وإقامتها للمعز الفاطمي ، كما أمر بأن تضرب السكة باسم الخليفة الفاطمي ومنع لبس السواد شعار المبشرين ، وقرر لبس الملابس البيضاء وحرم على الناس قراءة التسييح ، سيج باسم ربك ، في صلاة الجمعة ونهى عن التكبير بعد الصلاة وكان من العادات المألوفة عند الشيعيين ^(١) .

وكانت الدعوة المذهب الفاطمي تقام في مصر في عهد جوهر في المساجد ، وبخاصة في جامع عمرو وجامع ابن طولون والجامع الأزهر الذي بناه جوهر عقب الفتح ، كما كانت الدعوة لهذا المذهب تزداد على يد داعي الدعوة ومن كان يعاونونه من الدعاة .

لم يكن الغرض من بناء المساجد في مصر مقصوداً على الأغراض الدينية وحدها ، فقد كان بناؤها لأسباب سياسية أيضاً . ومن ثم أصبحت المساجد مركزاً للثقافة الإسلامية ، ومناخاً لاجتماع العلماء والفقهاء ، ومكاناً لإذاعة الأخبار الهامة . ولما كان الغرض الأول الذي كانت ترى إليه سياسة الفاطميين في مصر هو جذب الناس إليهم وإدخالهم في حظيرة مذهبهم ، فإنهم لم يألوا جهداً في بث تعاليم هذا المذهب في نفوس المصريين واتخاذهم ذلك وسيلة للوصول إلى أغراضهم السياسية .

(١) القزويني : اتعاظ المنهاص ص ٧٨



جامع عمرو بن العاص

وكان في مصر عندما فتحها الفاطميون مسجدان هما جامع عمرو في مدينة
الفسطاط مركز الحركة التجارية وموطن الأهلين ، وجامع ابن طولون في
القطائع . وسرعان ما بنى جوهر الجامع الأزهر في القاهرة حاضرة الفاطميين
الجديدة . لذلك نرى أن تتكلم عن بث الدعوة الفاطمية في كل من هذه
المساجد الثلاثة ، انرى إلى أى حد نجح الفاطميون في هذا السيل .

خطب للحزب في جامع عمرو في التاسع عشر من شيبان سنة ٣٥٨هـ (سنة
٩٩٦ م) بعد استيلاء جوهر عن الفسطاط بأيام نلية^(١) . وكان ذكر المزم
في خطبة الجمعة يدل اسم الخليفة العباسي حادنا حاماً في تاريخ مصر^(٢) . فقد
شاد الخطيب في خطبته بعضاً من العلويين - الأئمة الصالحين - الذين انتهك

(١) ابن خلكان ١٥ ص ١٤٩

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن : الفاطميون في مصر ص ١٢٠

الخارجون من السفين حتم^(١) . وبدأ النزاع الديني بين الشيعة والسنيين بصورة اشد عدا ، مما كانت عليه في الأزمان السالفة . فأخذ كل حزب في لمن الآخر والخط من قيمته . وفي يوم الجمعة الثامن عشر من ذى القعدة سنة ٣٥٨ هـ دعا الخطيب لآل البيت ، وراى في الخطبة العبارة الآتية : « اللهم صل على المصطفى ، وعلى علي المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهبت عنهم الرجز وطهرتهم تطهيراً ، اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين المادين المهديين »^(٢) . وفي رمضان سنة ٣٥٩ هـ أمر جوهر بأن تنقش جدران جامع عمرو بالرون الأخضر شعار العلويين .

وقد تطورت الدعوة الشيعية في جامع ابن طولون في ولاية القائد جوهر في شهر ربيع الثاني سنة ٣٦٦ هـ . فقد كان الأذان بمصر كأذان أهل المدينة وهو « الله أكبر الله أكبر » ، وظل الحال على ذلك حتى قدم جوهر مصر . فلما كان يوم الجمعة ٨ جمادى الأولى سنة ٣٥٩ صل جوهر في جامع ابن طولون وخطب عبد السميع بن عمر الخطيب العباسي وأذن المؤذنون ، حتى على خير العمل ، وهي من العبارات المأثورة عند الشيعة .

وقد انتقلت هذه العبارة من جامع ابن طولون إلى جامع السكر ، ومنه إلى جامع عمرو . ومحدثنا للقريري أنه حضر الصلاة في جامع ابن طولون في هذا اليوم عدد غير قليل ، وأن عبد السميع الخطيب العباسي قد شاد في خطبته

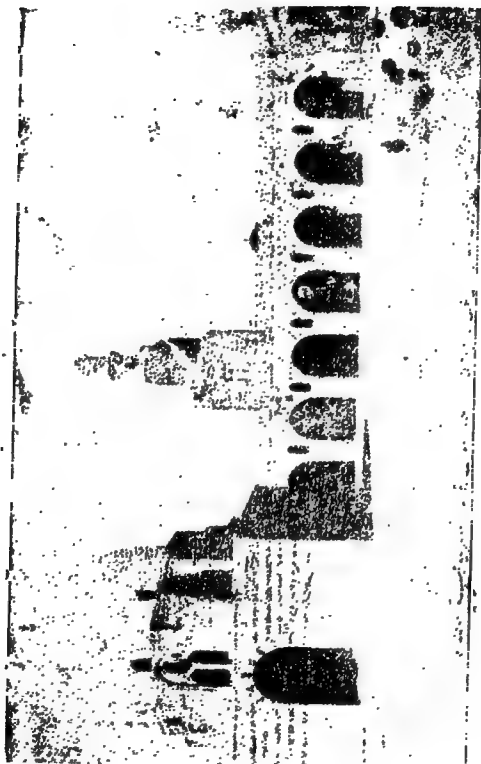
(١) من خطبة هبة الله بن أحمد التي ألقيها في الجامع العتيق في ٢٠ شعبان سنة

٣٥٨ هـ ، القريري : انماط الختفاص ٧٥ - ٧٦

(٢) القريري : انماط الختفاص ٧٧ ، وأبو المحاسن ج ٢ ص ٤٠٨ ، ابن

خلكان ج ١ ص ١٢٠

جامع احمد بن طولون



بذكر أهل البيت وعدد آثارهم ، كما أنه دعا لقائد جوهر الذي لم يقر الخطيب
على ذكر اسمه في الصلاة بحجة أن مولاه المزم لم يأمر بشيء من ذلك^(١) .

أما الجامع الأزهر فقد جعله الفاطميون مركزاً لبث عقائد مذهبهم
واجتماع أشياعهم . وقد أقيمت الصلاة فيه لأول مرة في ٧ رمضان سنة ٣٦١ هـ ،
ولم يرد جوهر شيئاً جديداً في الأذان والخطبة في هذا الجامع على ما أدخله
عليهما في جامعي عمرو وابن طولون . واستمرت الحال كذلك حتى جاء المزم ،
فقطورت الدعوة الفاطمية في الأزهر تطوراً عظيماً . فقد أمر الخليفة الفاطمي
بأن تنقش العبارة الآتية على جدران مصر القديمة وهي خير الناس بعد رسول
الله صلى الله عليه وسلم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب^(٢) . وفي المحرم سنة
٣٦٣ هـ (سنة ٩٧٣ م) أقام الخليفة المزم صلاة الجمعة في مهمل القاهرة التي
أنشأها جوهر في رمضان سنة ٣٥٨ هـ خارج باب النصر . وأدخلت على الدعوة
الشيعية مظاهر جديدة في الجامع الأزهر . فقد كان السنيون يكفرون على الميت
أرباً فقط . فأمر المزم بالتكبير على الميت على حسب مكانته مقتضياً في ذلك
أثر علي بن طالب . ولما مات أحد بني عم المزم صلى عليه هذا الخليفة في الجامع
الأزهر وكبر عليه سبعاً وكبر على ميت آخر خمساً^(٣) .

ولما وصل المزم إلى مصر وصرف جوهر عن ولايتها قام المزم بنفسه
بنشر هذه الدعوة ، ثم تولاهما الخلفاء الفاطميون من بعده . وقد استعان
الفاطيون في نشر مذهبهم بالدعاة الذين كانوا يجمعونهم في جيوشهم لبث
الدعاية باسمهم وكانت الدعوة للذهب الفاطمي ، بعد الفتح ، تنزع على يد
داعي الدعاة ، وكان من كبار الموظفين . وقد خصص له المزم مكاناً في قصره

(١) القريري : المخطوط ج ٢ ص ٢٧ .

(٢) القريري : اتساظ المختار ص ٩٠ .

(٣) القريري : النبط ج ٢ ص ٣٥٣ .

لا يفوتنا أن من أم أراض الساسة التي اتهمها جوهر في مصر هي نشر الدعوة الفاطمية باسم مولاه المزم . ولنا شك في أن جوهر قد استعان بطائفة من الدعاة وأنه قد عين لهم رئيسا هو داعي الدعاة ، كان مركزه الجامع الأزهر . ولا غرو فإن الفاطميين لم يهتموا اهتماما كبيرا ببيت دعوتهم في المساجد الأخرى كجامع عمرو وجامع ابن طولون التي يؤمهما السفين . ولما بين جوهر القصر لمولاه المزم اتخذ المزم ليكون مقراً لداعي الدعاة .

وكان يساعد داعي الدعاة في بث التعاليم الفاطمية اثنا عشر تقياً ، كان له ثواب ينوبون عنه في سائر البلاد المصرية ، ويحضر إليه فقهاء الدولة يتلقون منه الأوامر ، ويقدمون إليه في يومي الاثنين والخميس محاضراتهم عن أصول المذهب الشيعي ، فيعرضها الداعي بنفسه قبل إلقاءها على الخليفة فيتر مايقبل منها ويذيلها بأمنائه ، ثم يردها الداعي إليهم .

وكان داعي الدعاة يعقد المجالس في مكانين كبيرين من قصر الخليفة . فكان مجلس على كرسی الدعوة في الديوان الكبير ، وبدأ بمحاضرة الرجال ، ثم يعقد للنساء مجلساً خاصاً يعرف بمجلس الداعي . وفي هذين المكانين كان يحاضر الناس ويلقنهم عقائد المذهب الشيعي . فإذا ما فرغ داعي الدعاة من إلقاء محاضراته على الحاضرين ساروا إليه لتقبل يده ، فيسمح على رؤوسهم بالجزء الذي عليه إسضاء الخليفة . وكان داعي الدعاة يجمع التجوى^(١) من الإسماعيلية أثناء انعقاد هذه المجالس . وكان كل من يدفع من سراة الإسماعيلية ثلاثة وثلاثين ديناراً وثلاث دنانير يعطى رقعة مديلة بإسضاء الخليفة فيها « بارك الله فيك وفي مالك ووليك ودينك » ، فيدخرها ويضرب بها .

وكان داعي الدعاة يراغب على الجلوس في القصر لإلقاء محاضراته . وكان يفر دلال على مجلسا ، والخاصة وشيوخ الدولة مجلسا ، والعلامة والنازحين إلى

(١) التجوى : الصلوة وهي عبارة عن ثلاثة دراهم وثلاث.

مصر من البلدان الأجنبية مجلساً ، والحرم وخواص النساء المقصود مجلساً ، كما كان النساء يحضرن في الجامع الأزهر^(١) .

وكان في قصر الخليفة مجموعة عظيمة من الكتب ، لغرض منها نشر عقائد الفاطميين وتلقينها للناس . ولا فرو قد عني الفاطميون عناية خاصة بزيادة عدد الكتب في المذهب الشيعي ، حتى كانت مكتبة القصر في القاهرة تنافس غيرها من المسكاتب في العالم الإسلامي^(٢) .

ولم تقتصر أعمال الفاطميين في نشر دعوتهم على الإشادة بمحمد آل البيت ، بل علوا أيضاً على الخط من شأن الخلفاء الراشدين الثلاثة ، وم أبي بكر وعمر وعثمان ، ثم شأن الخلفاء من بني أمية وبني العباس والصحابية الذين لم ينصروا علياً ولم يقولوا بأحقية في الخلافة بعد الرسول عليه الصلاة والسلام . بل اعتبروا هؤلاء خارجين على الدين والدولة . ومن ثم نرى فضائل علي وأولاده من بعده تنقش على السكة وعلى جدران المساجد في مصر وفي البلاد التي كانت تحت سلطانها . كما نرى الخلفاء في عهد الفاطميين يلتمنون الصحابة على كافة المناير حتى لقد أزم جميع الموظفين المصريين أن يمتنعوا المذهب الفاطمي ، كما حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانين هذا المذهب . وليس بعيداً أن تكون الرغبة في الحصول على مناصب الدولة هي التي دفعت بفريق من السفين إلى التحول إلى المذهب الشيعي .

النظام الإداري في مصر في دولة جوهر :

كان من سياسة جوهر أن يحمل النظرية الشيعية على المصريين السفين في المناصب العامة . ولا فرو قد رأى أنه من الطبيعي أن يتولأ أكثر مناصب

(١) القزويني : القسطنطينية ١٠٣١ ص ٩٣١

(٢) ابن خلكان ٢٣ ص ١٤٦

الدولة إلى انصاره من المعارضة الذين قاموا على اكتافهم الدولة القاطمية . وكما حدث ذلك في الدولة العباسية ، فقد كانت المناصب الهامة في الدولة تسند إلى الحراسانيين لما بذلوه من المساعدة في إقامة دولتهم . وقد بدأ جوهر في تنفيذ سياسته بأن عمل على محو كل أثر من آثار المذهب الشيعي سواء كان ذلك من الوجهة الدينية أو المدنية ، فانظر إلى معتق هذا المذهب نظرة الخارجين على الدين .

وكان جوهر يتوب عن الخليفة المور في إدارة شئون هذه البلاد . وكان في سياسته شيء كثير من الحكمة وبعد النظر . فقد أفسح المجال أمام المعارضة ، لكي يستطيعوا الإلزام بالنظم الإدارية التي كانت تسير عليها الحكومة المصرية في عهد الإخميمديين . ويوضح لنا المقرئ هذه السياسة بقوله : إن جوهر أ لم يدع عملا إلا جعل فيه مفريا شريكا لمن فيه ، (١) .

وقد رأى جوهر أن ينقل سياسته تدريجيا ، حتى لاثير شعور السفين الذين كانت إليهم إدارة أمور الدولة ، فتتمطل الأعمال الإدارية ويضطرب حبل الأمن والنظام في البلاد . وقد نجح جوهر في سياسته ، بحما كان من أثره أن أصبحت أمور الدولة على اختلافها في أيدي الشيعيين في سنة ٣٧٩ هـ أي بعد الفتح بنحو عشرين سنة . ولم يبق في أيدي السفين إلا القليل من مناصب الدولة مما ليس له أهمية أو خطر . وقد حتم جوهر على جميع موظفي الدولة أن يسيروا وفق أحكام المذهب الشيعي ، فذهب الدولة الحاكمة وكان الفاطميون يساقبون بالزول كل من يرف بالمخالفة في تنفيذ هذه الأحكام . وبذلك انتشر المذهب الشيعي في مصر بين المورطين السفين خشية الاضطهاد أو رغبة في الوصول إلى المناصب العالية في الدولة ، وحقا خدم في ذلك غير المسلمين من النصارى واليهود .

(١) المقرئ : انماط المتفا ص ٧٨

وفي أواخر سنة ٣٧٢ هـ تغيرت إدارة المناصب في مصر تغيراً عظيماً . فقد كانت دار الشرطة - بعد أن فتح العرب مصر - في مدينة القسطنطينية ، فلما تأسست مدينة المنصورة بنيت فيها دار أخرى للشرطة أطلق عليها دار الشرطة العليا ، كما أطلق على الأولى دار الشرطة السفلى ، فلما استولى الفاطميون على مصر جعلوا مقر الشرطة العليا في القاهرة ^(١) . وقد ذكر ابن دقاق ^(٢) أن صاحب الشرطة قد توفي في نفس اليوم الذي وصل فيه جوهر مصر . فأُسندت إلى جبر ، وبقيت دار الشرطة السفلى في القسطنطينية وتقلدها عروبة ابن إبراهيم وشيل المعري ^(٣) . وقد صرف المعز بن عبد السميع عمن الخطاية بعد أن تقلدها أربعاً وستين سنة ، وأُسندها إلى جعفر بن الحسن ابن الحسين في جامع عمرو ، كما أُسندت إلى أخيه في الجامع الأزهر في سنة ٣٧٩ هـ ^(٤) . وتقلد بيت المال محمد بن الحسين بن مهذب ، وهؤلاء كلهم من المنابرية الشيعة .

وكانت أم الأعمال الإدارية التي تقلدها الشيعة هي جباية الخراج ، والوزارة ، والقضاة ، والحسبة .

كان أول ما اهتم به جوهر عقب الفتح هو العمل على تخفيف وطأة القسط والجماعة التي اتبعت البلاد . فقد أنفق عروفاً طاماً المحبوب عهد يراقت إلى المحتسب . وكانت مهمته منع احتكار المحبوب .

كان يتولى جباية الخراج في مصر حين فتحها جوهر ، علي بن يحيى بن العرمم . فأقره جوهر في منصبه . ولم يكده بمضى شهر على ذلك حتى أشرك

(١) ابن ميسر ص ٤٥

(٢) ص ٤٣ - ١١

(٣) للقرطبي : انصار الجنتان ص ٩٥

(٤) النقط ص ٧٠ - ٥٩

معه رجاء بن صولاب . وينتلب على الظن أن ابن صولاب هذا كان مغربيا ، وذلك تبعا للسياسة التي سار عليها جوهر من إستناد المناصب العالية للخصميين من الغاربة وإحلالهم محل الموظفين السنيين . إلا أن موظفي الخراج لم يلبثوا أن أصبحوا تحت إشراف يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن ، فصرقا ابن الحرمرم وابن صولاب عن مناصبهما وجعلا جباية الخراج قسمين : أحدهما في يد علي بن طباطبا وعبد الله بن صلاه الله ، وثانيهما في يد الحسن بن عبد الله والحسين بن أحمد الروذباري .

وقد ذكر المقرئى^(١) أن جوهر ا جى خراج مصر في السنة الأولى من ولايته ١٠٠٠ و ٢٠٠ دينار . وكان هذا المقدار قد نقص كثيرا في أواخر أيام كافور حين انتاب مصر القحط وحما الوفاء على أثر انخفاض الثيل مدة سبع سنوات (٣٥١ - ٣٦٠ هـ) . ولم تلتها المجاعة إلا بعد شهر اكتوبر سنة ٣٦٠ هـ (سنة ٩٦٩ م) أى في أوائل دخول الشتاء . ومن ثم بدأت البلاد تسترد نشاطها .

وقد عهد المزمز إلى يعقوب بن كلس وعسلوج بن الحسن بوضع نظام جديد للضرائب بدل النظام القديم ، جمعت أقسامه المختلفة في مكان واحد . كما عمل نظام جديد لتقدير الأملاك وتحديد الضرائب التي كانت تفرض على كل منها ، فوضعا نظاما دقيقا لجباية الضرائب على اختلاف أنواعها . وقد اعتمدت الحكومة بتحصيل ما تأخر منها ، كما عنيبت بدراسة الشكايات التي كانت تقدم اليها فيما يختص بجباية الضرائب . وسلكت في تنفيذ النظام الجديد ، سبيل الحرم ، فجمعت دافى الضرائب من اشتطاط عمال الجباية بهم . فكان من أثر هذه الخطة الحكيمة أن زادت موارد البلاد زيادة عظيمة .

ويذكر ابن ميسر أنه قد بلغ ما كان يستخرج من القسطلط في يوم واحد

(١) النخط ج ١ ص ٩٩

مقدار يقراوح بين ٥٠.٠٠٠ و ١٢٠.٠٠٠ دينار، وأنه قد استخرج من تيسر
وديايط والأشعوبين في يوم واحد أكثر من ٢٢٠.٠٠٠ دينار . وهذا
يميد كل البعد عن الحقيقة، إذ لو كان المتوسط ١٩٠.٠٠٠ دينار في اليوم
بلغ في السنة ٣٦ مليوناً من الديناتير^(١). وهذا شيء كثير لم تبلغه جباية مصر
في عهد الفاطميين . والذي يغلب على الظن أن هذه الآلاف إنما هي دراهم
لا ديناتير .



وكان يتقلد منصب الوزارة، عند فتح مصر على يد جوهر، الوزير
أبو الفضل جعفر بن القرات، الذي تول هذا المنصب مدة طويلة في عهد
العباسيين والإخشيديين . وكان سنياً ظاهراً . وقد أتى جوهر في بادئ الأمر
أن يلقبه بالوزير وامتنع عن مخاطبته بهذا اللقب، وقال: ما كان وزير خليفة^(٢).
إلا أنه قد أقره في منصبه، متمشياً في ذلك مع سياسته العامة في هذه البلاد .
ولم يبق لابن القرات من منصبه إلا الاسم فقط، فقد عين جوهر خادماً يبيت
مع جعفر في داره ويلزمه في خدواته وروحاته ويراقبه في حركاته
وسكناته^(٣). ومن ثم ضعف نفوذ هذا الوزير إلى حد كبير . ويحدثنا ياقوت
أن جعفر بن القرات اعتذر عن البقاء في دست الوزارة بعد وصول المزمز
إلى مصر^(٤).

لما علم جعفر بقرب وصول المزمز إلى مصر أتى أن يستقبله في الإسكندرية

(١) ابن ميسر ص ٤٦

(٢) القريري : اتعاظ المناص ٧٠ ، ابن خلكن ج ١ ص ١١٩ .

(٣) القريري : اتعاظ المنفا ص ٨٥

(٤) إرشاد الأديب : ج ٢ ص ٤١٢

فراى كبار السنين فى ذلك إخراجا لمركزهم، وفرصة يستغلها المدر لاخططادهم وأخذهم بالعدة والمنف. ومن ثم طلبوا إلى جعفر أن يستقبل الخليفة حتى لا يترضوا الحققة وسخطه. فأذعن جعفر لطلبهم، وخرج لاستقبال المدر فى الإسكندرية.

ولسنا نشك فى أن المدر قد العمل بمسامحه ما كان من أمر هذا الوزير وزياته الإذهاب لاستقباله فأسرها فى قفسه. وقد قيل إن المدر سأل ابن القترات «أصبح الشيخ؟» فقال: نعم. فقال الخليفة «وذرت قبر الشيخين (أبو بكر وحمزة)؟» ولما رأى جعفر بذلكته ودهائه أن المدر قصد بهذا السؤال إخراجا والإيقاع به، أجابه على الفور: «شغلنى عنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما شغلنى أمير المؤمنين عن السلام على ولئ العهد، السلام عليك يا ولئ عهد المسلمين ورحمة الله وبركاته». وكان من أثر هذا الجواب الحكيم أن عرض المدر على جعفر منصب الوزارة، فاعتذر عن قبوله. فطلب إليه المدر البقاء فى مصر بعد اعتزاله منصبه حتى يكون على مقر بقعته لاستشارته فى الأمور الهامة التى تعرض له.

وتقلد منصب الوزارة من بعده يعقوب بن كلس وعلوج بن الحسين. وقد عهد إليهما المدر بإدارة كاتبة شئون الدولة الحربية والمدنية، كما تقدم فى ١٤ المحرم سنة ٣٣٠ هـ الحراج والحسبة والسواحل والأعشار^(١) والجوالى^(٢) والأجاس^(٣) والمواريث والشرطين^(٤). ولا شك فى أن إسناد هذه الأعمال

(١) الأعشار: فرحتها عمر بن الخطاب بأدى الأمر على للتجار غير المسلمين.
(٢) الجوالى: هى عبارة عن اختيار الأحسن من كل شئ، سواء من الممتلكات أو الشاة.

(٣) الأجاس: هى كل ما يوقف على جهة من جهات النهر، ويصرف ما يتصل من أموالها، حسبما أرادته الواقف.

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٤٤٠

الإدوية الكبرى إليهما قد قوى نفوذهما وأثر على السلطة التي كان يتمتع بها جوهر من قبل. على أن ابن كاس قد أولى ابن الفرات ثقته التامة وهو له عليه في محاسبة المال. فكان ابن الفرات يحتلف إليه ويتناول الطعام عنده. وتوقفت أواصر الصداقة بينهما، ولأسباب عند ما تزوج أبو العباس الفضل بن الوزير ابن الفرات بابنة الوزير ابن كاس.

ولم تنته حياة هذا الرجل العظيم بمزله من منصبه في عهد المعز، فقد تولى الوزارة في عهد الخليفة العزيز بالله (٢٦٥—٢٨٦ هـ) سنة كاملة^(١). كما تقلد الخراج في سنة ٢٨٢ هـ بعد أن اتهم العزيز وزيره أبا الحسين بن علي بن عمر العباس بتبديد أموال الدولة وقبض عليه. وفي ربيع الأول سنة ٢٨٣ هـ استندت الوزارة إليه ثانية فظل فيها سنة واحدة وتوفي هذا الوزير سنة ٢٩١ هـ^(٢) بعد أن تقلد الوزارة في عهد العباسيين والإخشيديين والفاطميين.

• • •

كان قاضي القضاة في مصر، عندما دخلها الفاطميون بقيادة جوهر، أبا الطاهر، وهو من قضاء المصريين السنيين، وكان قد تولى منصبه هذا منذ شهر ربيع الأول سنة ٢٤٨ هـ. فرأى جوهر أن عزله وإحلاله قاض من الشيعة على قد يجر إلى غضب المصريين وسخطهم. فأقره في منصبه لغرض سياسي لحسب، وعمل في الوقت نفسه على إضعاف نفوذه إلى حد بعيد.

ولما وصل المعز إلى مصر خف الناس لاستقباله ونزل الركب عن مطيهم وقبلوا الأرض بين يديه هذا أبا الطاهر فانه ظل راكباً حتى قرب منه المعز

(١) القزويني: النسطج ٢ ص ٨٤

(٢) ابن خلكان: ١٣٩٢

فخرج ولم يسل عليه ولم يقبل الأرض ، فلفت ذلك نظر المرز ، وسأل أحد حجاجه عن الرجل الذي عالف الناس كلهم ، فعلم منه أنه قاضى مصر . ولما لام الناس أبا الطاهر على ذلك ذكر قوله تعالى (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذى خلقهن إن كنتم إياه تعبدون)^(١) .

أقر المرز أبا الطاهر فى منصبه جرياً على نفس السياسة التى اتبعها جرهم منذ أن فتح هذه البلاد . وليس بعيداً أن يكون المرز قد أقر أبا الطاهر فى منصب القضاء لما رآه من ذكاته وحضور بديته . فقد ذكر المقرئ أن المرز حين قدم مصر سأل أبا طاهر : « كم رأيت من خليفة ؟ » فأجابته على الفور : « مارأيت خليفة غير مولانا المرز لدين الله صلوات الله عليه » . فاستحسن المرز ذلك منه ، مع أنه بأن أبا الطاهر رأى المعتز والمكشكى والمقتدر وغيرهم من الخلفاء العباسيين .

إلا أن سلطان أبي الطاهر قد اضطلع وألومه المرز أن يصدر أحكامه وفق عقائد المذهب الشيعى^(٢) . بل زاد على ذلك فأشرك معه أبا سعيد بن أبى ثوبان المغربى فى شوال سنة ٣٦٢ هـ^(٣) وأسند إليه النظر فى المظالم الخاصة بالمقاربة . وما لبثت سلطته أن قويت حتى أصبح ينظر أيضاً فى القضايا المشتركة بينهم وبين المصريين ، ثم اشتد نفوذه حتى آل إليه النظر فى قضايا المصريين أنفسهم ، وأصبح يطلق عليه اسم قاضى مصر والاسكندرية^(٤) . وفى سنة ٣٦٣ عين المرز قاضياً آخر من الشيعة ، هو على بن أبى حنيفة

(١) الكندى ص ٣٨٧

(٢) الدكتور حسن إبراهيم حسن : القاطميون فى مصر ص ١٩٠ قلا من

الغنى الكبير للمقرئ بليد .

(٣) الكندى ص ٥٨٤

(٤) ابن ميسر ص ٤٤ ، للمقرئ : انطاخ الخنقا ص ٩٢

النعمان المغربي ، قاسم أبا الطاهر القضاء . فكان يجلس ابن النعمان القضاء في جامع عمرو ، وأبو الطاهر في الجامع الأزهر . وظلت الحال كذلك حتى استقل على بن النعمان بالقضاء عامة في شهر صفر سنة ٣٦٦هـ على أثر استقالة أبي الطاهر لشيخوخته وضعفه . وقد بدأ ذلك الضعف عليه على أثر إصابته بفالج أبلل شقه بما جعل المزي يقول بعد أن رآه على هذه الحالة : « ما بقي إلا أن يقدوه »^(١) . وأعلن تقلد على بن النعمان منصب القضاء على منبر الجامع العتيق .

وقد ظل أولاد النعمان يتقلدون هذا المنصب حتى سنة ٥٣٩٨هـ . فقد تقلد الحسين بن النعمان القضاء في مصر وما يتبعها من الأعمال في شهر صفر سنة ٣٩٣هـ وأسندت مقاليد الدعوة لقاضي القضاء للمرة الأولى ، فندا يطلق عليه : قاضي القضاء وداعي الدعاة .



كان المحتسب إلى أول عهد الفاطميين سنيا ، فأقاله جوهر على أثر الفتح وعين مكانه رجلا من المغاربة ، وذلك في ربيع الثاني سنة ٣٥٩هـ . وقد تلو الصبابة على المحتسب الجديد ، لأنه أنب جماعة منهم ، فاحتج الباقون وصاحوا : « معاوية نال على بن أبي طالب » . وذكر المقرئ^(٢) أن الصبابة قد شتموا عند ما علوا هزم جوهر على حرق رحبتهم ، ولكنه عدل عن ذلك خوفا على الجامع . ولما توفى المحتسب المغربي تولى الحسبة سليمان ابن عسرة الذي حدث هذا الشغب في ولايته الثانية على الخراج .

وقد ارتقى نظام الحسبة في عهد الفاطميين . فكانت أعمال المحتسب

(١) الكنتى : ص ٨٥

(٢) المقرئ : أملاط الحفنا ص ٨٧

واسطة بين القاضي وصاحب النظر في المظالم . وكان ينتخب من أعيان المسلمين . ولاخرو فقد كان منصب المحاسب من المناصب الدينية الهامة . فكان إليه الإشراف على الأسواق ، والمحافظة على الآداب ، واحتيفاء الديون ، ومراقبة الموازين والمكاييل ، وكان لما دار خاصة تمارير فيها ^(١) . فكان المحاسب يطلب جميع الباعة إلى هذه الدار في أوقات معينة ، ومعهم موازينهم وحسبهم ومكاييلهم ، حيث يمارها ، فإن وجد فيها نقصاً أبادها وألزم صاحبها بشراء غيرها . ثم كسامل معهم ، فكان يلزم من وجد في ميزانه خطلاً أو في صنته نقصاً بإصلاحه . وقد ظلت هذا الدار طوال عهد الدولة الفاطمية ثم الأيوبية ^(٢) .

وكان المحاسب نواب يتربون عنه في القيام بهذه الأعمال في مصر وغيرها من البلدان . وكان هؤلاء التواب يطوفون على أبواب الحرف ، ويلاحظون الطرق العامة ، ويفتشون قدور الطعام ، ويعتقنون اللحوم ، ويشاهدون حال الجواراة ، ويلزمون رؤساء السفن بالأعمال أكثر مما يجب حملها ، ويأمرون السقائين بتغذية قريبهم ومراعاة عيادها . ويمنحون معلمى الكتائب من ضرب الأطفال ضرباً مبرحاً ، ويمخذون معلمى السباحة من التفرير بالصغار .

وكان المحاسب مجلس الفصل بين الناس في جامعي عمرو والأزهر . وقد اتسعت سلطته وزاد خطرهما ، حتى كان لهما على رجال الشرطة القيام بتنفيذ أحكامه . وكان يتقاضى راتباً شهرياً قدره ثلاثون ديناراً .

(١) للمأوردى: الأحكام السلطانية : ص ٢٢٧ - ٢٢٠ .

(٢) للقرطبي : المخطط ج ١ ص ٤٦٣ - ٤٦٤ . ابن خلدون : مقدمة ص

وقد ثار المصريون لما ارتكبه المغاربة من أعمال العنف والشدّة ، وما كان منهم من نهب يوت الأهلين وإجلائهم عنها . إلا أن جوهر أقدم وضع بحسن سياسته حدا لما أتاه هؤلاء المغاربة من القوضى وما أثاروه من القلاقل فأمر بقتل جماعة منهم . ولا شك في أن تشكيل جوهر هؤلاء المفاغين والضرب على أيديهم كان مظهراً من مظاهر سياسته الحكيمة . وكان غرضه من ذلك أن يوقف المغاربة عند حدم ، حتى لا تتجدد الثورات التي كان يقوم بها الأهلون قطعاً عن أموالهم وأرواحهم .

من هنا زى أن جوهر أقدم وضع أساساً صالحاً للسياسة التي جرى عليها الفاطميون في مصر ، فقد أخذ بالشدّة والبطش كل من حاول العبث بالنظام . وقد سار المرو على مثال جوهر حين عاد المغاربة سيرتهم الأولى في سنة ٣٧٣ هـ حيث احتلوا دور المصريين في عين شمس ، وجعل لهم والياً وقاضياً تنظر في أحوالهم ^(١) . وبذلك تم انفصال المغاربة أنصار الدولة الفاطمية الشيعية عن المصريين السنيين ، وانطلقت نيران الفتن التي طالما كانت تقوم بين الفريقين بسبب اختلاطهم بعضهم ببعض . ولم نسمع بعد ذلك عن هذه الفتن شيئاً ، اللهم إلا في الاحتفالات الدينية ، كالاحتفال باليوم المأسر من المحرم ، ذكرى اليوم الذي قتل فيه الحسين بن علي - رضي الله عنه - بكر بلا ^(٢) .

(١) القرطبي : أتماط المختار ص ٩٦

(٢) القرطبي : نفس المصدر ص ٨٧ - ٩٤ ابن عسك ص ٤٥

الباب الرابع

منشآت جوهر في مصر

تأسيس مدينة القاهرة :

كان من أم ما يرى إليه ولاية المسلمين في مصر وفي غيرها من البلاد الإسلامية التي فتحوها ، أن يؤسسوا قاعدة للمسلمين تسع جنودهم وتأوي أنصارهم وتضم جوانبها دولوين حكومتهم ، ثم يبنون فيها مسجداً يقيمون فيه شعائر دينهم . وقد سن هذه السنة ولاية مصر منذ فتحها عمرو بن العاص الذي أسس القسطنطينية ، وجاء بعده صالح بن علي العبّاسي فأسس هو وأبو حنون مدينة المنصورة ، وأسس أحمد بن طولون مدينة القطائع ، ثم جاء جوهر بنين مدينة القاهرة .

تعتبر مدينة القسطنطينية أقدم هذه العواصم ، فقد أسسها عمرو بن العاص بعد أن تم له فتح مصر وأجلّى الروم عنها (٦٤٠ = ٦٤٠ م) . وكان عمرو يريد أن يبنّي الإسكندرية ، وكانت قاعدة هذه البلاد منذ أيام الإسكندر المقدوني (٣٣٠ ق م) ، حاضرة لولايتيه الجديدة ، إذ كانت طمرة آهلة بالسكان ، وأرسل بذلك إلى عمرو بن الخطاب رضي الله عنه . فقال الخليفة رسول عمرو : هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ ، قال : نعم أمير المؤمنين إذا جرى النيل . . فكتب إلى عمرو : إن لا أحب أن تحول بالمسلمين منزلاً يحول للماء بيني وبينهم في شتاء ولا صيف ، فلا تجعلوا بيني وبينكم ماء ، متى أردت أن أركب اليكم راحتي حين أقدم اليكم قدمت . وأشار عليه بفتح مدينة أخرى غير الإسكندرية .

ولا غرو فقد كان عمر بعيد النظر ، لأن العرب لم يكونوا أمة بحرية ،

ومن ثم لم تعد الاسكندرية صالحة لأن تكون ساحة الديار المصرية . فلم يكن بد إذا من أن تتخذ العاصمة الجديدة إما على البحر الأحمر وإما في مكان تسهل منه المواصلات البرية مع بلاد العرب . ولما كان موضع القسطنطينية على الطريق إلى بلاد العرب ، وفي مكان يسهل منه الإشراف على قسيمي الديار المصرية شمالا وجنوبا ، اتخذ عمرو ساحة لولايتيه .

فتح القسطنطينية في ذلك الفضاء المتسع الذي عسكر فيه عمرو بجندته عند حصاره حصن بابليون ، والذي لا يعد كثيرا عن منف عاصمة مصر القديمة ، وكانت فضاء ومزارع بين النيل والمقطم ، ليس فيه من البناء والعمارة سوى حصن بابليون^(١) .

وقد سميت هذه المدينة بهذا الاسم : لأن عمرو بن العاص لما أراد التوجه إلى الاسكندرية لقتال الروم أمر برفع قسطاطه^(٢) فوجد أن إمارة قد باضت فيه ، فأمر عمر بإيقاله كما هو . فلما رجع المسلمون من الاسكندرية سألوهم عما من السكان الذي يزلون فيه فقال : « القسطنطينية » إشارة إلى قسطاطه الذي تركه لتبييض الجبانة فيه . وبذلك سميت المدينة كلها « القسطنطينية »^(٣) .

شرح عمرو بعد أن فتح مدينة الاسكندرية ونزل بجندته بموارد حصن بابليون في تأسيس مدينة القسطنطينية ، فاختط أول جامع بني في مصر ، فسمى الجامع العتيق أو تاج الجوامع ، ثم أطلق عليه بعد ذلك جامع عمرو ، وهو الاسم الذي لا يزال يعرف به حتى اليوم^(٤) ثم اختطت القبائل العربية دورها

(١) القزويني : الخط ج ١ ص ٢٨٩

(٢) خيمته

(٣) القزويني : الخط ج ١ ص ٢٩٣ . وقد قيل في تسمية القسطنطينية أقوال

أخرى ليس هنا مجال بحثها

Lane-Poole : The Story of Cairo, P 34

(٤)

بالقرب من ذلك المسجد . وهكذا أنشئت القسطنطينية وبُنيت فيها المساكن
وجُزِل بها الناس ، واتسع نطاقها ، وأصبحت حاضرة الديار المصرية ؛ كما
أصبحت من أمهات العواصم الإسلامية ^(١) .

ولما انتقلت السيادة إلى العباسيين وولى صالح بن علي العباسي ولاية مصر ،
رأى أن القسطنطينية قد ضاقت بمسكروها فأسس مدينة العسكر سنة ١٧٣ هـ
(٧٥٠ م) في الفضاء الواقع في الشمال الشرق لمدينة القسطنطينية ، واتخذها
حاضرة له . ومن أجل ذلك أطلق عليها اسم العسكر ، وكانت بالنسبة إلى
القسطنطينية أشبه بفرساي بالنسبة إلى باريس ^(٢) . وكان موضعها يعرف في صدر
الإسلام باسم الحمراء القصوى ، وهو المكان الذي نزل فيه ثلاث قبائل من
العرب ^(٣) عقب الفتح الإسلامي . وقد هجرتها هذه القبائل منذ ذلك الحين
فأصبح مكانها قفرا . وفي ذلك المكان أنشئت العاصمة الجديدة ، وهي تمتد
من القسطنطينية إلى جبل يشكر الذي بنى فوقه جلعان بن طولون .

(١) تلك القسطنطينية مركزا للحركة التجارية عامرة بالعدد آفة بالسكان حتى
دخل مصر عمرو Amalric ملك بيت المقدس في سنة ٥٦٣ هـ (سنة ١١٦٨ م)
فلم يستطع شاور وزير الخليفة الفاطمي الماخذ بالفتح هنا : لأن المدينة لم تكن
على عهدنا الأول من القوة ، أخف إلى ذلك خوفه من دخول الفرنجة فيها . فأمر
بإغلاقها وحرقها . ويقول المقرئ : « وبمك شاور إلى مصر بشرين أقام
قارورة نطف وعشرة آلاف مفعول نار فحرق فيها ، فأوقع لمب النار ودخان الحريق
إلى السماء ، فسار عنظراً مهولاً . فاستمرت النار تأتي على مساكن مصر من اليوم
التاسع والعشرين من صفر لتنام أربعة وخمسين يوماً .. ومن ثم تحولت مصر
القسطنطينية إلى الأطلال المبرومة الآن بكيلان (تلأل) مصر .. ولم يتخلف من بقايا
تلك المدينة الباقية إلا جامع عمرو وقصر الشمع . (المخطوط : ج ١ ص ٣٣٨ —

(٣٣٨)

Lane—Poole : The Story of Cairo p. 65

(٧)

(٢) بنى يشكر ، بنى دويل ، بنى الأزدق (المقرئ : المخطوط : ج ١ ص ٣٠٤)

وهناك أقام الباسيون دورهم ، وانفخوا مساكينهم . ثم أقام صالح بن علي دار الإمارة وثكنات الجنود وسط هذه العاصمة ، كما اتخذ المنصور من يده قصر الذهب وسط مدينة بغداد ، حتى لا يكون أحد أبعد إليه من الآخر ^(١) . وفي سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) أسس الفضل بن صالح أحد ولاية الباسيين مسجد للسكر بجوار دار الإمارة فأصبح من المساجد الجامعة بالديار المصرية . ثم سمح للناس بالبناء حول السكر ، فكثرت فيها العمارة حتى اتصلت بالقسطنطين ، وأصبحت مدينة كبيرة بها القوارع والمساجد والدور والبساتين والأسواق . وهكذا أصبحت السكر مقر الإمارة والإدارة والشرطة (١٣٢ - ٢٥٤ هـ) ^(٢) .

ولكن أهمية السكر قد قلت كثيراً منذ بنى أحمد بن طولون مدينته القسطنطين ، فصار يذكر اسم القسطنطين والقسطنطين وترك اسم السكر . فأصبحت هذه المدينة كأن لم تكن بالأسر ^(٣) .

ورأى أحمد بن طولون أن مدينة السكر قد ضاقت بحجته وخدمه وعيده ، فصار على ستة عمرو بن العاص مؤسس القسطنطين ، وصالح بن علي الباسي مؤسس السكر ، في تخطيط حاضرة جديدة تسع جنده وتوفر لهم مرافق الحياة ، فاختار في سنة ٢٥٦ هـ (٨٧٠ م) المنطقة الواقعة شمال القسطنطين بين جبل يشكر وسفح المقطم قرب دار الإمارة بالسكر لتأسيس الحاضرة

(١) Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate, p. 91

(٢) ظل أمراء مصر يقيمون في دار الإمارة في السكر ، حتى بنى جوهر المقتدر قائد المعز ، مدينة القاهرة .

(٣) تحريت مدينة السكر في عهد الخليفة المستنصر الفاطمي على أثر المجاعة التي حدثت في ذلك المين . فإن بدر الخالي لما حضر إلى مصر وأخذ في تعمير القاهرة من جديد قتل بها ما كان بالسكر والقسطنطين من أقاض المساكن ، حتى صار مكان مائتين الباصتين موحشاً مقفراً . ولم يبق حماراً من السكر سوى جملته يسكر الذي بنى عليه جامع ابن طولون .

الجديدة التي سميت (القطائع) . ويقول المقرئ^(١) إن مدينة القطائع كانت تمتد من قبة الهواء التي بنيت على أطرافها قلعة الجبل إلى جامع ابن طولون ، ومن الرمية الواقعة تحت قلعة الجبل إلى مسجد زين العابدين . وقد قدرت مساحتها بميل في ميل^(٢) .

اتخذ أحمد بن طولون تحت موقع القلعة داراً يقيم فيها يحيط بها حديقة غناء ، ثم أسس مسجده المشهور المعروف باسمه ، وأقام بجواره دار الإمارة ، وجعل فيها بين المسجد والقصر ميداناً فسيحاً كان يلعب فيه ابن طولون وجنده بالصواعل^(٣) ، وقد بلغ من الاتساع مبلغاً عظيماً حتى سمي القصر كله بالميدان . ثم اختط كبار رجال الدولة ابن طولون وقواده وغلثانه دورم حول ذلك الميدان ، واتخذت كل طائفة منهم قطعة^(٤) خاصتها ، كما جعل للطوائف المختلفة وكذلك الحرف والصناعات والتجار قطائع خاصة . وكانت كل قطعة تسمى باسم الطائفة التي تسكنها ، فسميت المدينة كلها بالقطائع ، ثم أخذ الناس في البناء ، فعمرت المدينة ، وأقيمت فيها الدور الفخمة والمساجد والحمامات حتى اتصلت أبنيتها بانفساط . وجاء بعده ابنه خوارويه فوسع القطائع وجعلها هـ وأقبل على قصر أبيه وزاد فيه ، وأخذ الميدان الذي كان لأبيه فجعله كله يستانا ، وزرع فيه أنواع الرماحين وأصناف الشجر^(٥) .

-
- (١) التخط ١ ص ٣١٣ ، ابن دقاق : ٤٣ ص ١٢١ و ١٢٢ .
 (٢) ابن دقاق : ٤ ص ١٢١ . ويقال إن الذي قدر هذه المساحة هو ابن سعيد الأندلسي الذي زار مصر أيام الملك الصالح أيوب .
 والميل لك القرمش ويقدر بثلاثة أو أربعة آلاف ذراع .
 (٣) المقرئ : التخط ١ ص ٣١٥ . والمراد بذلك لعبة الكرة للمروعة عند الإنجليز والفرنسيين باسم بولو « Polo » .
 (٤) القطيعة : جزء من الأرض .
 (٥) المقرئ : التخط ١ ص ٣١٦ .



ولما توفي خوارويه (سنة ٢٨٢هـ و ٨٩٥م) أخذت الدولة الطولونية في الضعف والانعزال . فبعث الخليفة المكتفي القائد العباسي المشهور محمد بن سليمان الكاتب لاسترداد مصر . فهزم الأسطول المصري وفر هارون بن خوارويه إلى مدينة العباسية^(١) ، حيث قتله عماء شيان وعدى ، فلم يرض الجند عن عملهما ، ورفضوا إقرار تعيين شيان وكتبوا أحمد بن سليمان . فزل القسطنطاط وسار منها إلى القطائع صاحبة الطولونيين (سنة ٢٩٢هـ و ٩٠٤م) وأشعل فيها النار . فالتهمت الدور والمساجد والحمامات والأسواق والبساتين ، وأصبحت تلك المدينة الزاهرة أثرا بعد عين^(٢) .

وهكذا زالت الدولة الطولونية وخربت القطائع وأضحت أطلالا دراسة لم يبق منها غير المسجد الجامع . ومن ثم عادت القسطنطاط مقر الإمارة ومركز الإدارة والجند ، فزادت مبانيها وهرمت أرجائها . وظلت الحال على ذلك حتى فتح مصر جوهر الصقل قائد جيوش الممزن لدين الله الفاطمي وأسس مدينة القاهرة سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) .

•••

تعتبر القاهرة رابعة حواضر مصر الإسلامية . وقد تأسست سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) على أثر دخول جيوش الممزن لدين الله الفاطمي بقيادة جوهر وقتلتها على الدولة الإخشيدية .

دخل جوهر الصقل مدينة القسطنطاط في ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ (١٧ يولية سنة ٩٦٩م) وحسك في القعناء الواقع شمالها . وفي تلك الليلة نفسها وضع جوهر أسس المدينة التي عزم على إنشائها لتكون حاضرة الدولة الفاطمية ، كلو وضع أساس قصر نولاه الممزن^(٣) وقد اختطت كل قبة من

(١) العباسية : بلدة أول ما يطلق القصاص لمصر من العام .

(٢) المقرئى : القسطنطاط ١ ص ٣٣٢ ، ابن دقاق : ٤ ص ١٢١ .

Lane-Poole : The Story of Cairo, p. 118.

(٣)

Migeon : Art Musulman, tome I. p. 44

الحرير حول ذلك القصر خطة عرفت باسمها . فاختطت جماعة من بركة الحارة
البريقة واختطت الروم حارتين : إحداهما حارة الروم الآن والأخرى حارة
الروم الجوانية بقرب باب القصر ^(١) .

أسس جوهر مدينة القاهرة لتكون مقراً للملك الفاطميين ومركز لقصر
دهوتهم الدينية ، ويتخذها حصناً منيعاً لصد هجمات القرامطة الذين بدأوا
يهيئون حدود مصر الشمالية . أضف إلى ذلك ما كان من زحفهم على بلاد
الغمام وكانت تابعة لمصر إذ ذاك واستيلائهم على دمشق . ومن ثم لمهر الفاطميين
بدأ من انتفاء شرم ورد غرائثهم ^(٢) .

وبكاد يشبه موقف جوهر في عدوله عن اتخاذ القسطنطين أو العسكر حاصمة
له وتقكيره في إنشاء حاصمة جديدة تقي بأغراض الدولة الفاطمية ، موقف
المنصور عند ما فكر في بناء بغداد . فقد كانت أمله هوامص إسلامية عديدة
يستطيع أن يتخذ إحداها حاضرة له . ولكنه نظر إلى المدينة فوجد ما لا تصح
لأن تكون حاضرة لخلافته ، فقد تنهد الزمن وأصبح البيون شاسعاً بين زمن
قنبي صلى الله عليه وسلم وزمن العباسيين . وألقى دمشق حافة بذكر بات الأمورين ،
كما كانت الكوفة مركز الشيعة ، هوامص مع حل وأولاده . أما الحاشمية فكانت
قرية من الكوفة ، وكان المنصور لا يأمن على نفسه المقام فيها ، ولا سيما
بعد واقعة الرولندية . فلم يكن بداً من أن يتجه المنصور شرقاً نحو غرب
قارس ، حيث كان الأهلون يقدسون ملوكهم في عهد بني ساسان وحيث كان
أفصاره من قامت الدولة العباسية على أكتافهم ^(٣) .

(١) أبو الحسن : التاج الزاهرة ج ٢ ص ١٦٦ .

G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de L'Egypte. 32

(٢) القرطبي : القسطنطين ج ١ ص ٤٦١ .

G. Le Strange : Baghdad during the Abbassid Caliphate, (٣)
p.p.1-6.

كذلك فعل كل من قسطنطين والإسكندر من قبله . فقد ،
أن آتينا لا تصلح لأن تكون حاضرة لدولته لقرىها من بلاد
موطن الديموقراطية وشعب مجلس السناتو ، لحول وجهه نحو
الاستبداد والحكم الفردي القديم ، ورأى أن موقع يزنطة هو
يصلح لأن يكون حاضرة للملك ، لأنه بقى بتحقيق أغراضه الس
وأما الإسكندر الأكبر فقد اختار موقع مدينة راقودة^(١) لبناء
لتكون حاضرة لدولته وموطنا للثقافة اليونانية ، وذلك لقرىها .
ووقعها على البحر الأبيض المتوسط واسطة العقد بين دول
هذا إلى أن اليونان كانت أمة بحرية ، ومن ثم كان من الضروري
حواضرها على البحر .

من ذلك نرى أن أول ما كان يتجه إليه نظر أكثر الفاتحين
دولهم على اقتراض دول أخرى ، أن يتخذوا عاصمة جديدة
دولتهم الناشئة .

ولما فرغ جوهر من بناء قصر الخليفة وأقام سوله السور
كلها بالمنصورة نسبة إلى المنصور أن الممر ، وظلت هذه القلعة
الممر إلى مصر فسموها القاهرة^(٢) . وقد اختلف المؤرخون
للمدينة بهذا الاسم : فقال ابن دقاق^(٣) إنها سميت بذلك لأن أ
على طلوع كوكب رصده أحد الحكماء السبعة الذين كانوا بديار مصر

(١) راقودة أو راقوتيس : كانت قرية صغيرة بمواقع الأس
القرى : الخطوط ١ ص ١٤٤ .

(٢) القرى : اتعاظ الحقن ص ٧٣ ، الخطوط ١ ص ٣٧٧ ، أ
٤١٥ ، ابن دقاق ص ٣٥ .

(٣) الانتصار لواسطة جند الأصار ص ٦ ص ٣٥ .

(٤) حفر

يقال له « القاهرة » . ويقول المقرئى : « إن القائد جهرم لما أراد بناءها
أحضر المنجمين وعرفهم أنه يريد عمارة بلد ظاهر مصر ليقم بها الجند ،
وأمرهم باختيار طالع سعيد لوضع الأساس بحيث لا يخرج البلد عن تسليم أبدأ ،
فأختاروا طالماً لوضع الأساس ، وطالماً لحفر السور ، وجعلوا يداير السور
قوائم خشب ، بين كل قائمتين حبل فيه أجراس ، وقالوا العمال ، إذا تحركت
الأجراس فاربوا ما بأيديكم من الطين والحجارة . فوقفوا ينتظرون الوقت
الصالح لذلك . فاتفق أن غربا وقع على حبل من تلك الحبال التي فيها الأجراس
فتمزقت كلها ، فظن العمال أن المنجمين قد حركوها . فالتقوا ما بأيديهم من
الطين والحجارة وبنوا . فصاح المنجمون بالقاهر في الطالع . ففض ذلك وفاتهم
ما قصده . ويقال إن المريخ كان في الطالع عند ابتداء وضع الأساس ، وهو
قاهر الفلك ، فسموها بالقاهرة ، (١) .

ونحن لا نستبعد صحة هذه الرواية ، ولا سيما أن المر - على ما ذكره
ابن القلانسي (٢) - كان مغرماً بعلم النجوم وكان يستشير منجمه في كل ما يتعلق
بصياغة الحامسة وفي أمور الدولة العامة . على أنه يظهر لنا أن هذه الحكاية
تؤكد تكون خرافة من تلك الخرافات التي يخلقها الناس ويتحدثون بها عند
تخطيط حامية من المواصل . فقد ذكر المقرئى نفس هذه الحكاية عند كلامه
على بناء مدينة الإسكندرية في عهد الاسكندر .

وقيل أيضاً إنها سميت القاهرة : لأنها تقهر من شدتها وحلول الخروج
على أميرها . وليس بعيداً أن يكون اسم القاهرة مأخوفاً من قول المصور
لجهر عند مسيره لفتح مصر « ولتدخلن في خرابات ابن طولون وتبقى مدينة
تقهر الدنيا » (٣) .

(١) القبط ج ١ ص ٢٧٧ ، أبو الحسن ج ٢ ص ٤١٦

(٢) ذيل تاريخ دمشق ص ١٤ ، أبو الحسن ج ٢ ص ٤١٦ ، ٤٤٩ ، المقرئى :

القبط ج ١ ص ٢٥٤

(٣) القبط ج ٢ ص ٢٤٩

تقع القاهرة المعزية^(١) شمال القسطنطينية . وكانت وقت إنشائها تمتد من منارة جامع الحاكم إلى باب زويلة ، وكانت حدودها الشرقية حتى حدود القاهرة الحالية ، أما الجهة الغربية فلم تتجاوز شارع الخليلج^(٢) . وعلى ذلك غلبت على شمالها باب النصر ، وجنوبها باب زويلة^(٣) ، وشرقا باب البرقية وباب المحروق^(٤) (الدراسة الآن) ، وغربا باب السمادة وباب الفرج وباب الخوخة .

وتشمل القاهرة المعزية - على ما رواه المقرئ - أحياء الجامع الأزهر والنجاة والحسنية وباب الشرية والموسكى والنورية وباب الخلق^(٥) . ويقال إن الممر لما قدم القاهرة ورأى أنه لا ساحل لها ، لم يجد موقعا ، وقال : يا جهر فانتك عمارتها ما هنا^(٦) يريد القصر^(٧) .

(١) أطلق على المدينة التي بناها جهر للبرامسة « القاهرة المعزية » نسبة إلى الخليفة المماليك (ابن خلكان ج ١ ص ١٠٣) ، كما أطلق عليها اسم « القاهرة المحروسة » لارتفاع سورها وحصانة أبوابها .

Lane—Poole : The Story of Cairo p. 128, 127

G. Wint : Précis d'Histoire Musulmane de L'Egypte (٢)

(٣) ليس باب زويلة من المدينة التي أسسها جهر بل هو زيادة حدثت بعد ذلك .

(٤) يلاحظ أن موضع حزين البابين هو غير الموضع الذي كان فيه أيام جهر

(٥) المقرئ : التلطيح ج ١ ص ٢٧٣

Lane—Poole : The Story of Cairo,

(٦) المقرئ : أنباط الخلفاء ص ٧٤

(٧) القصر : حجة كانت تعرف بأمر دفين واقعة على ساحل النيل ، وقد جعلها المماليك مساويا وأطلقوا عليها التلطيح الحاكم جامع القصر . وكانت تسمى المكسر لإقامة صاحب المكسر والمشار فيها ، ثم قلبت قبيل القصر ، والمكسر دوام كانت تؤخذ من بائى السلع في الأسواق . المقرئ : التلطيح ج ٢ ص ١٢١ .

وقد أحيطت القاهرة بسور كبير^(١) من اللبن ، يقدر حجم البنية ذراع في ثلثي ذراع . وقد ضم ذلك السور بين جوائبه الخطاط التي تكونت منها القاهرة المعزية ، وكان بمثابة حصن يتحصن فيه جوهر ضد هجمات القرامطة . وإلى الجنوب الشرق من ذلك السور تقع مدينة الفسطاط ، وإلى الغرب منه تقع المقس ، وكانت ميناء القاهرة حتى تأسست بولاق^(٢) بعد أن تحول مجرى النيل في القرنين الثالث عشر والرابع عشر للميلاد . وقد أصبحت بولاق مدينة تجارية منذ ٧١٣ هـ عند ما أمر الملك الناصر ببنائها ، وبني بها الدور على شاطئ النيل فسكنها الناس وعمروها .

وكان اسم القاهرة يطلق على الجزء الواقع بين الأسوار ، بينما كان يعرف الجزء الواقع خارج هذه الأسوار بظاهر القاهرة ، وهو خطط وأحياء جديدة تمتد فيما بين جامع ابن طولون وقلمة الجبل ، وبين جبل المقطم والجهة المقابلة له من ضفة النيل ، وهي المعروفة الآن بأحياء بولاق وشبرا وباب اللوق^(٣) .

وفي ليلة الأربعاء ١٨ شعبان سنة ٣٥٨ هـ وضع جوهر أساس القصر الذي بناه لمولاه المعز ، في ذلك الفضاء الفسيح بداخل سور القاهرة ، وكان يقع شرق سور المدينة ، لذلك أطلق عليه اسم القصر الكبير الشرقى . وكان يسمى هذا القصر أيضاً القصر المعزى ، لأن المعز لدين الله هو الذي أمر جوهر

(١) بنى سور القاهرة ثلاث مرات : الأولى في سنة ٣٥٨ هـ في عهد القائد جوهر ، والثانية في سنة ٤٨٠ هـ في خلافة المستنصر ، والثالثة في سنة ٥٦٦ هـ في عهد الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (المقيزى الخطاط ج ١ ص ٢٧٧) على يد وزيره بدر الجمال الذي هدم هذا السور وبناه بالأحجار . أبو الحسن ٢٤ ص ٤٢٣ .

(٢) Lane-poole : Egypt in the Middle Ages P. 118 (٢)

(٣) المقيزى : الخطاط ج ١ ص ١٠٩

بينائه حين سيره لفتح مصر ، ووضع له رسمه^(١) . وكان يسكنه الخليفة ويجلس فيه للنظر في أمور الدولة ، كما كان به دواوين الحكومة وخزائن السلاح وغيرها ، وكذلك الجند لحراسة الخليفة . ويذكر المسيو ميچون أنه كان يحتوى على أربعة آلاف حجرة^(٢) .

وكان في ذلك القصر أبواب كثيرة ، نخص بالذكر منها باب الذهب ولعلوه منتطرة يشرف منها الخليفة في بعض الأوقات ، وباب العيد وأمامه رحبة تسمعه تنف فيها الجنود يرمى العيدين وتعرف برحبة العيد ، وباب الديلم وموضعه الآن مسجد الحسين ، ويصل إلى باب الزعفران ، وهي مقبرة الخلفاء وسائر أفراد الأسرة المالكة ، وموضعه الآن الخليلي الآن . وقد دفن المدفون في هذه المقبرة جثث آبائه المهدي والقائم والمصور إلى آخرها ، في توابيت من بلاد المغرب .

وقد ظلت هذه المقبرة مدفاً للخلفاء وأولادهم ونسبهم حتى أنشأ قباير كركر الدين الخليلي ، أحد أمراء المماليك ، خانه المعروف باسمه ، فأخرج منها عظامهم وألقاها على تلال البرقية^(٣) وبين باب الديلم وباب تربة الزعفران الخوخ السبع ، التي كان يصل منها الخليفة إلى الجامع الأزهر في ليالي الوقود^(٤) . فليس بمنظره هذا الجامع لشاعده الناس . ويقابل باب الديلم ، الجامع الأزهر في الجنوب الشرق من القصر ، وكان يصل فيه الخليفة صلاة الجمعة . ويجوار رحبة باب العيد دار

(١) المغربي ١٣ ص ٣٨٤

(٢) G . Migeon : Art Musulman, I. p . 42

(٣) للمغربي : الخطط ١٣ ص ٤٠٧

(٤) ليالي الوقود : هي الليالي التي تسبق أول ومنتصف شهر رجب وشعبان . وكان الناس تبعاً للعالم الشيعية يصومون بعض هذه العشرين كصومهم رمضان . ولذلك كانوا يحتفلون بهذه الأيام الأربعة كما يحتفلون بمصان . واستمر الاحتفال بهذه الأيام إلى وقتنا الحاضر .

الضيافة ، وكان يسمى بدار سعيد السعداء ، ويقابلها دار الوزارة . وكان هناك طريق يوصل بين تربة الوعفران وباب الزهومة^(١) . وبين هذا الباب والجامع ، كانت خزانة القصر ومن بينها خزائن الكتب والمشروبات والأسلحة والكسب والفرش ، وكانت تقع في الجهة الشرقية من القاهرة للمعزية .

وقد دخل المعز ذلك القصر في اليوم السابع من شهر ربيع الثاني سنة ٨٣٧ هـ ، وأثناء بفاخر الرياض وكل ما يحتاج إليه الملوك والحلفاء^(٢) .

وكان يقع أمام القصر الشرق ، القصر الذي بناه العزيز ، وكان أصغر منه ويعرف بالقصر الشرق وقد بنى في موضع الملوستان الكبير المتصورى . ولا يزال بعضه إلى اليوم يعرف بسوق النحاسين^(٣) ، وبمسوره الميدان والبستان الكافورى^(٤) ودار الضيافة القديمة ورجة الإقبال . وكان بين ذلك القصر والقصر الشرق الكبير فضاء منقسم يسع عشرة آلاف جدى ، أطلق عليه فيما بعد بين القصرين . وقد اختط جوهر طريقاً طاماً يمر وسط القاهرة من باب زويلة جنوباً إلى باب الفتوح .

ويصف لنا على مبارك باشا^(٥) مدينة القاهرة على النحو الذى كانت عليه أيام المعز في هذه العبارة : « شكل مدينة القاهرة في أيام القائد جوهر كان مربعاً تقريباً ، ضلعه ألف ومائتا متر ، ومساحة الأرض المحصورة فيه ثمانية وأربعون فداناً : منها نحو سبعين فداناً بنى فيها القصر الكبير ، وخمسة

(١) سمي بباب الزهومة : لأنه كانت تضم منه رائحة العجم .

(٢) المقرئى : امتاظ المتفاضل ٧٤

(٣) Lane—Poole : The Story of Cairo, p. 128

(٤) البستان الكافورى هو : الحديقة للفناء التى أنشأها كافور واستولى عليها

الفاطميون . وكان يقع غرب سوق النحاسين الآن .

Q. Migeon : Art Musulman, t. I. p. 41

(٥) المخطط ج ١ ص ٨١

وثلاثون فدانا البستان الكافورى ، ومثلها لليادين ، فيكون الباقي مائتي فدان هو الذى توزع على الطرق العسكرية فى نحو حشرين حارة بجانبى قسبة القاهرة . وكان سور المدينة الشرقى يبدأ عن الخليج بنحو ثلاثين مترا ، وفى ستة ستة وثمانين وأربعمائة فى وزارة بدر الجمال وخلافة المستنصر باقى الفاطمى هدم هذا السور وبنيته الأبواب من حجر ، (١) .

ولما اخط القائد جوهر مدينة القاهرة جعل لها أربعة أبواب : هى بابا ذوية وباب النصر وباب الفتوح . ويقول ستافلى لين (٢) أن بابى ذوية يتكرونان من بابين متجاورين ، أحدهما القوس الذى كان بجوار المسجد المعروف بسام بن نوح عليه السلام ، ولهذا سمي « باب القوس » . وقد مر منه الممر عند قدميه من بلاد المغرب ، فكان الناس يمرون منه تهركا . أما الباب الثانى فقد تعادم منه الناس وهجروه .

ويقول القلقشندى (٣) إن جوهرأ سمي بابى ذوية بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة ذوية ، إحدى قبائل البير التى جاءت معه من بلاد المغرب . ولما قدم أمير الجيوش بدر الجمال وزير الخليفة المستنصر مصر فى سنة ٤٨٥ هـ (فى زمن الشدة العظمى) بنى باب ذوية الكبير الذى لا يزال باقيا إلى اليوم . أما باب النصر فقد بناه جوهر خارج مدينة القاهرة ، وظل فى موضعه حتى جاء بدر الجمال ونقله إلى المكان الذى يوجد به الآن . أما الباب المعروف بباب الفتوح الآن فهو من عمل أمير الجيوش بدر الجمال . وقد بناه فى غير المكان الذى بنى فيه جوهر بابا الذى لم يبق منه سوى حافته وحضادته اليسرى (٤) . ويقول مسيرفى : إن هذه الأبواب الثلاثة التى جدد بناها بدر

(١) ذكر الأستاذ مرجليوث

Margoliouth : Cairo, Jerusalem and Damascus

إن السور الذى أقامه بدر الجمال قد زاد مساحة المدينة ٩٠ فدانا

Lane—Poole : The story of Cairo, p.129

(٢)

(٣) صبح الأعشى ٣٤ ص ٢٥٢ .

(٤) القزوينى : انماط الحنفى ص ٢٨١

الجمال تجمع بين سلامة النوق ودقة البناء . وهي من عمل إخوة ثلاثة أصلهم من مدينة الرها (١) .

وكافت القاهرة في أيام جوهر صغيرة ، ليس بها سوى قصر الخليفة والجامع الأزهر وتكنات الجنود ودور المغاربة ورجال الحاشية وحرس الخليفة (٢) . وكان سكانها جميعاً من الشيعة . ثم ظلت تتدرج في العمران حتى بلغت في نهاية عهد الفاطميين درجة كبيرة من التقدم ، فأقيمت فيها المباحث الفخمة والقصور الشاهقة والأسواق الكبيرة ، وأنشئت بها الحدائق الفناء ، وبُنيت بها الدور والحمامات والحوانيت والمدارس والمساجد والفنادق ، واختلطت الشوارع والأزقة والدروب والحارات .

بناء الجامع المؤمّر:

دخل الإسلام مصر في سنة ٦٢٠ (سنة ٦٤٠ م) ، فأخذ المسلمون في بناء المساجد . ولم يكن الباحث على بنائها مقصوراً على الأراض الدينية وحدها كما كان الحال في جامع عمرو ، بل كان ذلك راجعاً إلى أسباب سياسية واجتماعية أيضاً . وكانت تتخذ بعض المساجد حصوناً : فكان يراعى في بنائها أن تكون كبيرة الحجم لتسع عدداً كبيراً من الجند . وخير مثل لذلك جامع ابن طولون ثالث المساجد الجامعة في مصر .

ولم تلبث هذه المساجد أن استُخدمت في الأراض العلمية إلى جانب الأراض السياسية والدينية ، فكان يدرس فيها اللغة العربية وأصول الدين .

G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte (١)
p. 36-37.

أنظر أيضاً :

Mme R. L. Devonshire : Quatre-Vingts Mosquées du Cairo, p. 21.
Lane-Poole : The Story of Cairo, p. 126 (٢)



الجامع الأزهر

وكان من بين تلك المساجد ، الجامع الأزهر ، الذى ذاعت شهرته وأصبح مركزاً لدراسة الدين الإسلامى ، ليس فى مصر فحسب ، بل فى العالم الإسلامى أجمع .

كان جامع عمرو أقدم هذه الجوامع . فقد أسسه عمرو بن العاص حين رجع من الإسكندرية ، بعد تخليط مدينة القسطنطينية . وكان أول ما اتجه إليه نظره أن يبنى للمسلمين مسجداً يقيمون فيه شأئهم الدينية ، وذلك جرياً على السياسة التى سار عليها المسلمون فقد كانوا يقيمون فى عاصمة كل إقليم يفتحونه مسجداً للجماعة .

بنى عمرو بن العاص جامعته المشهورة سنة ٦٢١ هـ ، وهو أقدم جوامع مصر الإسلامية . ومن ثم أطلق عليه المسجد العتيق ، ونتاج الجوامع ، والمسجد الجامع^(١) . ويقع شمال حصن بابليون الذى كانت تقيم فيه حامية الروم

(١) ابن دقاق ج ٤ ص ٥٩

وقت الفتح الاسلامي . وأول من زاد في هذا الجامع سلسلة بن عظم
الأفصاري (٤٧ - ٦٢ هـ) والى مصر من قبل معلومة ، فزخر سقفه
وجدراناه ووسعه من الجهتين الشرقية والشمالية . ولما ولي عبد العزيز بن
حروان (٦٥ - ٨٦ هـ) من قبل أخيه عبد الملك بن مروان ، هدم هذا الجامع
وبناه من جديد ووسعه من جميع جهاته^(١) ، فظل المسجد عامرا يؤمه الناس
للصلاة في كل يوم . ويقول ستانلي لين پول إنه كانت لهذا المسجد أهمية دينية
كبيرة عند المصريين ، ولا يزال أهل القاهرة يحرسون على إقامة صلاة الجمعة
التيقيمى به إلى اليوم^(٢) . ولم يبق من البناء الأصل شيء الآن ، فقد بناء حرو
بالطين . وإنما ترجع أهميته التاريخية إلى موضعه الذى بنى فيه أولا باعتباره
الموضع الذى أقيم فيه أول مسجد في مصر^(٣).

ولما انتقلت السيادة إلى الباسيين أسر صالح بن على مدينة السكر .
وفي سنة ١٦٩ هـ (٧٨٥ م) بنى الفضل بن صالح مسجد السكر فهدم من
المسجد الجامعة بالديار المصرية ، وكان بجزء دار الإمارة وسط هذه المدينة .
ثم زاد فيه عبد الله بن طاهر والى مصر من قبل المأمون وظل قائما في مكانه
حتى خربت المدينة كلها وقتل أئمة أمير الجيوش بدر الجمال وزير الخليفة
المستنصر بالله الناطقى^(٤) إلى مدينة القاهرة لتدميرها .

ثم جعلت الدولة الطولونية فى أحمد بن طولون سنة ٢١٢ هـ مسجده
المعروف باسمه على جبل يسكر في الجهة الجنوبية من القاهرة الحالية والجهة
الشمالية من السكر . ويقال أن الذى دعا إلى بنائه هو ضيق مسجد السكر
بالمصلين لكثرة جند أحمد بن طولون وخدمه وعبيده من جهة ثم التقرب إلى

(١) القرطبي : المخطط ج ١ ص ٢٤٦

(٢) Lane-Poole : The Story of Cairo p. 44

(٣) Devonshire : Quatre-vingts Mosquées du Cairo, p. 10

(٤) القرطبي : المخطط ج ٢ ص ٣٦٤ - ٣٦٥

الله تعالى من جهة أخرى . وقد جدد المنصور لاجين سنة ٦٩٦ هـ ، فإنه بعد أن قتل الملك الأشرف برسباي اختفى في ذلك الجامع ونذر أن يسره إذا من الله عليه بالخلاص . وقد وفى بنذره فاهتم بممارته وأعادته إلى ما كان عليه من البهاء والرواء ، ووقف عليه الأوقاف وقرر تدريس العلوم العقلية والنقلية فيه ^(١) .

وهذا الجامع هو أقدم آثار مصر الإسلامية التي بقيت على حالها الأول ^(٢) فقد سقطت مباني مدينة القطائع وذلك معالمها عدا هذا المسجد ، وذلك حين جاء محمد بن سليمان الكاتب قائد الخليفة العباسي المكتفي إلى مصر ووضع النار فيها بأمر الخليفة . ويرجع السبب في بقاء هذا الجامع حتى اليوم إلى استحصال الجير والرماد والأجر الأحمر القوي النار في بنائه . وقد أشير على ابن طولون باستعمال هذه المواد في البناء حين قال لأصحابه : « أريد أن أبني بناء إن احترقت مصر بقي ، وإن غرقت بقي » ^(٣) .

جاءت بعد ذلك الدولة الفاطمية ، وتم فتح مصر على يد جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله سنة ٣٥٨ هـ وأسس مدينة القاهرة ، في نفس البلية التي دخل فيها مدينة مصر (الفسطاط والسكر) ، لتكون أشبه بمدينة حصينة ومقلاته ولجنده وأتباعه من المغاربة ولتقيه شر القرامطة . وكان المذهب السني في ذلك الوقت منتشراً في مصر ، ولم يرجح جوهر - بما عرف عنه من الحزم وبعد النظر - أن يقاوم السنيين في مساجدهم بشعائر المذهب الفاطمي . فخص منها بالذكر تلك العبارة « السلام على الأئمة آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله » التي كان يذكرها الفاطميون في الخطبة ، حتى لا يشير جوهر - حقيقة المعريين .

لذلك حول جوهر على ثلاثي الشر قبل وقومه . ففي مسجداً يتلقى فيه

(١) ابن دقاق : الاتصار ج ٤ ص ٢٢١ - ١٢٤

(٢) ابن دقاق : نفس والجوهر والصفحة

(٣) الخط ج ٢ ص ٣٦٧

الناس عقائد المذهب الفاطمي . ومن ثم شرع في بناء الجامع الأزهر في يوم السبت الرابع من شهر رمضان سنة ٣٥٩ هـ (سنة ٩٧٠ م) . وتم بناؤه في سنتين تقريباً ، وأقيمت الصلاة فيه لأول مرة في اليوم السابع من شهر رمضان (سنة ٣٦١ هـ و ٢٢ يولية سنة ٩٧٢ م)^(١) .

كان الأزهر أول مسجد شيد في مدينة القاهرة المدة وأشهر جامع في العالم الإسلامي ، وأعظم جامعة إسلامية تدرس فيها العلوم الدينية والعقلية الآن ، تقصده الطلاب من جميع البلاد الإسلامية لتلقى العلم فيه (٢) .

وقد اختلف المؤرخون في تسمية هذا الجامع : فقال بعضهم إنه كان يحيط به القصور الزاهرة التي بنيت عند إنشاء مدينة القاهرة ، ولناسمى بالأزهر . وقال آخرون إنما سمي كذلك تفاؤلاً بما سيكون له من الشأن العظيم والمكانة الكبرى بازدهار العلوم فيه . ويظهر لنا أن الفاطميين الذين ينتسبون إلى فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وسلم سموه الأزهر إشادة بذكر جدتهم فاطمة الزهراء .

يشتمل الأزهر على مكان مسقوف الصلاة يسمى مقصورة ، وآخر غير مسقوف يسمى صحناً ، وما إلى ذلك من الملحقات التي تتبع المساجد مائة من منارات ومناطس وغيرها . وقد بنى فيه اتفاق جوهر مقصورة كبيرة بها ستة وسبعون عموداً من الرخام الجيد الأبيض اللون في صفوف متحاذاة . وفي سنة ١٦٧ هـ بنى الأمير عبد الرحمن كنعنا مقصورة ثانية بها خمسون

(١) المقري : المخط. ج ٢ ص ٢٧٢ ، القلشندي : ج ٢ ص ٣٦٤ .

Lane-Poole : The Story of Cairo, p. 125

(٢) Mme R. T. Devonshire : Quatre-vingts Mosquées du (٢)
Cairo, p. 11. G Migeon : Art Musulman, tome I. p. 41

عمودا من الرخام . وبذلك أصبح هذا الجامع مقصورتان عدد أعمدهما مائة وستة وعشرون عمودا . وإذا أضيف إلى هذا العدد ، الأعمدة للوضوء بملحقات الجامع كان مجموعها ثلاثمائة وخمسة وسبعين عموداً . وترتفع المقصورة الجديدة نصف ذراع من التي بناها القائد جوهر . وسقف المقصورتين من الخشب المتقن الصنع ، وهما متلاصقتان ، وفي كل منهما نوافذ لدخول النور والهواء ، وأما من الجامع ، فهو مكان مقسع غير مسقوف ، مرصوف بالحجر ، يجلس فيه الطلبة في الشتاء لتمتع بحرارة الشمس ، وينامون به في فصل الصيف عند اشتداد الحر . ويقومون فيه الصلاة عند ازدحام المقصورتين . وهو محاط من جهاته الأربع بيوتاتك تقوم على أعمدة من الرخام ، وعلى حيطانه آيات قرآنية منقوشة بخط كوفي جميل (١) .

وقد أنشأ القائد جوهر هذا الجامع محراباً بالمقصورة القديمة يسمى الآن القبلة القديمة ، ثم أقيمت به تسعة محاريب أخرى . ولم يبق من هذه المحاريب سوى ستة ، أشهرها إثنان أحدهما بالمقصورة القديمة ، والآخر بالمقصورة الجديدة ، ولكل منهما إمام يخالف صاحبه في المذهب الديني .

والجامع منبر واحد ، وهو من الخشب الخروط الجليل الصنع ، وله خطيب خاص في الجمع والأعياد . وقد نقل المنبر الأصل الذي أنشأه القائد جوهر إلى جامع الحاكم .

وقد أنشئ ، بالأزهر عند تأسيسه منارة واحدة ، ثم أصبح فيما بعد خمس منارات يؤذن عليها في أوقات الصلوات الخمس وفي ليالي رمضان والمواسم . وكانوا يعرفون أوقات الصلاة عن طريق الميقات ، ووظيفته التنبيه على أوقات الصلوات . وكان يقع أذن المنارات الأخرى بالقاهرة أذن الأزهر . وكان

الميثاق يعرف الأوقات بالنظر في المرونة التي لا تزال قائمة إلى اليوم بأحد
جدران من الأزهر .

وكان الممر يذهب إلى الجامع الأزهر في يوم الجمعة في موكب حافل لإقامة
الصلوة . وقد سار على هذه السنة من جاء من الخلفاء الفاطميين بعد الممر . وقد
ذكر المقرئ أن الخليفة العزيز الفاطمي هو أول من حوّل الأزهر من مسجد
تقام فيه الصلاة إلى جامعة تدرس فيها العلوم ، كما كان أول من أجرى الأرزاق
على طلاب العلم فيه وبني لهم المساكن للإقامة فيها^(١) .

الباب الخامس

حياة جوهر في مصر بعد قدوم المعز إليها

قدوم المعز إلى مصر :

ظل جوهر يحكم مصر بنفسه أربع سنوات ، منذ فتحها سنة ٣٥٨ هـ حتى قدم إليها المعز سنة ٣٦٢ هـ (٩٧٢ م) (١) . وقد ذكر ابن خلكان (٢) إن جوهر أظالمًا كتب إلى المعز يستدعيه للحنوز إلى مصر لتولى شئونها ، بعد أن رأى أن مصر والشام والحجاز قد خضعت لسلطان الفاطميين وخطب للمعز على منابرهما . فلما وجد المعز أن دعائهم ملكه قد توطلت في الشرق ، هزم على الرحيل إلى مصر .

خرج المعز من المنصورة يوم الإثنين ٢١ شوال سنة ٣٦١ هـ (٥ أغسطس سنة ٩٧٢ م) ، يريد مصر . فوصل سردانية وأقام بها مدة حتى اجتمع إليه رجاله وأتباعه . وهناك عقد العهد لبلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي على إفريقية (الأربعة ٢٢ ذى القعدة سنة ٣٦١ هـ وسبتمبر سنة ٩٧٢ م) . وأمر المعز أهل إفريقية بطاعته والاتباع بأمره (٣) . ثم رحل عنها يوم الخميس ٥ صفر سنة ٣٦٢ هـ ، ولم يزل في طريقه حتى وصل إلى بركة ومنها إلى مصر .

وقد دخل المعز الإسكندرية ، بمنته جواده (السبت ٢٣ شعبان سنة ٣٦٢ هـ و ١٩ مايو سنة ٩٧٢ م) ، في جمع كبير من رجالات دولته ، من بينهم أولاده

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ١ ج ص ١٢٠

(٢) ابن خلكان ٢ ج ص ١٠٢

(٣) ابن خلكان ٢ ج ص ١٠٨

وأخوته وأعمامه ، ومعه جيش آبابه المهدي والقائم والمنصور^(١) . فاستقبله
أعيان البلاد ، وعلى رأسهم أبو الطاهر قاضي مصر ، مجلس المعز عند المنارة
وخطبهم خطبة طويلة ذكر فيها ، أنه لم يرد دخول مصر لزيادة في ملكه ولا
لئال ، وإنما أراد إقامة الحق والحج والجهاد ، وأن يحجم عمره بالأعمال الصالحة ،
وأن يعمل ما أمر به جده صلى الله عليه وسلم . ثم وعظهم وأطال في الوعظ
حتى بكى بعض الحاضرين . ثم خلع على القاضي وبعض من كان معه ، ثم
انصرفوا بعد أن حملهم على دوابه^(٢) .

رحل المعز من الأسكندرية في أواخر شعبان سنة ٥٣٢ هـ ووصل إلى
الجيزة في ٢ رمضان من هذه السنة . فخرج إليه القائد جوهر وترجل عند لقاءه
وقبل الأرض بين يديه . واجتمع به الوزير أبو الفضل جعفر بن القرات .
وقد أقام المعز بالجيزة ثلاثة أيام ، أخذ عسكره خلافاً في العبور بامتحنهم إلى
ساحل مصر . وفي يوم الثلاثاء الخامس من شهر رمضان سنة ٥٣٢ هـ صر
المعز النيل ودخل القاهرة دون أن يمر على القسطنطين ، وكان الأهليون قد
زينوها له بالزينات الباهرة فلما منهم أنه سيبدأ بدخولها ، يتناهبون أهل
القاهرة للقاءه^(٣) .

ولما وصل المعز إلى القاهرة (الثلاثاء ٧ رمضان سنة ٥٣٢ هـ) ، دخل
القصر الذي بناه له جوهر ، وخر ساجداً لله تعالى ، ثم صلى ركعتين في إحدى
ردمائه ، وصل خلفه من كان معه . وقد أصبحت مصر منذ ذلك الحين
دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة^(٤) ، وغدت القاهرة - بدل القهروان -

G. Wiet : Précis d'Histoire Musulmane de l'Egypte p. 28 (١)

G. Wiet : Art Musulman, t. I. p. 41

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٢

G. Migeon : Art Musulman, t. p. 41 (٣)

(٤) المقرئ : اتعاظ الخلفاء ص ٨٩

مركز هذه الإمبراطورية الشاسعة الأرجاء . على أن نقل المعز مقر خلافته من للمدينة إلى القاهرة قد أقعد الفاطميين إفريقية (تونس) ^(١) . فإن يلكين شيخ صنهجة من قبائل البربر سرمان ما أعلن استقلاله وأسس الدولة الزيرية في سنة ٥٢٢ هـ . وحذا حذوه في ذلك الحاديون في سنة ٥٢٨ هـ . وفي عهد المستنصر ثم استقلال أمراء شمال إفريقية (سنة ٥٤٠ هـ) ، وخرجت هذه البلاد نهائيا عن سلطان الفاطميين ^(٢) .

أنام مع المعز في القصر أولاده وحاشيته وخدمه وعبيده . وكان بالقصر كل ما يحتاج إليه الملوك من مال وعين ^(٣) وجوهر وحل وقرش وأران وثياب وسلاح . وكان جوهر يقيم في ذلك القصر ، فلما علم بوصول المعز إلى الجيزة تركه ولم يحمل معه شيئا من أثاث القصر إلا ما كان عليه من الثياب ، ونزل في داره بالقاهرة ^(٤) . وفي اليوم التالي لوصول المعز خرج بأشراف مصر وقضايتها وعلماؤها ووجوها لتبتهته والاحتفال برصولة ..

جلس المعز في قصره في الخامس عشر من شهر رمضان على السرير الذهب الذي صنعه له جوهر في الإيوان الجديد . ثم أذن للمعز بدخول الناس عليه . فدخل الأشراف ، ثم الأولياء ، فسائر وجوه المدينة ، وجوهر قائم بين يديه ، يقدم الناس قوما بعد قوم ^(٥) ثم قدم جوهر هديته إلى مولاه المعز . وكانت - على ما ذكره المقرئى قلاهن ابن زولاق - مائة وخمسين فرسا مرسجة ملجمة ، وكان من تلك السروج والقمم ، ما هو موشى بالذهب

Lane—Poole : The Muhammadan Dynasties, p. 71 (١)

Lane—Poole : op. Cit. p. 39 (٢)

(٣) العين : مفرق لفظي يطلق على أشياء مختلفة . ولعل المقصود بها هنا التقد وكذا الدنانير الخروية والنير الخروية .

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ١٢٠

(٥) المقرئى : أتماط المنفا ص ٩٠ - ٩١

وما هو مرصع بالجواهر ، وواحد وثلاثون فيه على بقايا^(١) بالديباغ^(٢) والمناطق^(٣) والفرش ، ومنها تسع نوق محلة بالحرير ، وثلاث وثلاثون بقلة ، منها سبعة مسرجة ملجمة ، ومائة وثلاثون بقلة للنقل ، وتسعون نجيبا^(٤) ، وأربعة صناديق مشبكة يرى ما بداخلها من أواني الذهب والفضة ، ومائة سيف عمل بالذهب والفضة . ودرجات من فضة مخرفة فيها جواهر ، وشاسية مرصعة في خلاف ، وتسعمائة سقط ، ونخت^(٥) ، فيها الطرف وكل ما أعده جواهر لمولاه المعز من ذخائر مصر^(٦) .

ولما فرغ جواهر من تقديم هديته قام أبو جعفر بن عبيد الله الحسيني وقدم هديته إلى المعز وهي أحد عشر سقطا من متاع تونة^(٧) وتيس^(٨) وديباط^(٩) ،

(١) البحث : نوح من الإبل .

(٢) الديباغ : ثوب سداه ولحم (رسم) حرير) ويقال هو مغرب . ثم كثرت اشتقاق العرب منه .

(٣) المناطق : جمع منطوق وهو ما يشد به الوسط .

(٤) النجيب : هو الكريم (الأصيل) من النبل .

(٥) نخف : وماء .

(٦) المقرري : الخطط ج ١ ص ٢٨٥ — ٢٨٦ : الساط الحنقا ص ٩١ ،

G. Migon : Art Musulman I. p. 42

(٧) تونة : جزيرة قرب تيس وديباط .

(٨) تيس : جزيرة بين القرماء وديباط .

(٩) اشتهرت هذه المدن في ذلك الوقت بصناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها ، حتى كان لها شهرة عالمية في ذلك العهد . فقد كان يضرب للثل بتياب تونة ، وكانت تصنع بها كسوة الكعبة أحيانا . كما اشتهر أهل تيس بعمل الثياب الملونة والفرش النادرة المثال ، وأهل ديباط بصناعة الأقفص القلونية التي أدخلت صناعتها من بلاد اليونان ، وهي نوع من القماش ذو ألوان براقة تتلاشى إذا انكسرت عليها أشعة الشمس ؛ وقد ذكر ياقوت عند كلامه على ديباط وتيس أن ساكنة الثياب الرفيعة هي

وخيل وينال . وقال : كنت أشتى أن يلبس منها المولى ابن الله ثوباً أو يتعمم بالعمامة التي فيها ، فأعمل لحليفة قط مثلها ، (١) .

وبعد أن تقبل المولى ما قدم إليه من الهدايا والتحف أذن جماعة المهتدين بالجلوس في مجلسه ، وأمر بإطلاق جميع من اعتقلهم جوهر من الإخشيديين والكافوريين وكانوا نحو الألف .

وفي عيد الفطر ، ركب المولى إلى مصر القاهرة الذي بناه جوهر ، فأقبل عليه في مركبه ، وجلس خلفه من الجهة اليمنى أبو جعفر مسلم العلوي وصلى المولى بالناس صلاة العيد صلاة تامة طويلة . فقرأ في الركعة الأولى أم الكتاب وهل أتاك حديث الفاشية ، ثم كبر بعد القراءة وأطال الركوع والسجود ، وكان القاضي النعمان بن محمد يبلغ عنه التكبير . ثم قرأ في الركعة الثانية أم الكتاب وسورة الضحى ، ثم كبر أيضاً بعد القراءة وهي صلاة جده علي ابن أبي طالب . وأطال الركوع والسجود في الثانية أيضاً . قال ابن زولاق : قد سبحت خلفه في كل ركعة وسجدة نيفا وثلاثين تسبيحة . وسهر المولى بيسم الله الرحمن الرحيم ، في كل سورة . ولما فرغ من الصلاة صعد المنبر ومعه القائد جوهر ومحمدين جعفر وشفيح صاحب المظلة . وخطب الناس ، وأبلغ في خطابته حتى أبكاهم ثم انصرف في عساكره (٢) . ولما وصل إلى قصره دعا الناس لتناول الطعام عنده ، وعاتب من تأخر منهم ، وتهدد من بلغه أنه صيام العيد .

وقد خلع المولى على جوهر في ذلك العيد خلعة مذهبة ، وعمامة وقلعه

كما كانوا من قبله ، وأن أمل دياط كانوا يستأجرون غرافاً في قبوات على خليج دياط لمصل القباب المروقة بالشرب .

(١) القزويني : انماط الحنفيا ص ٩١

(٢) القزويني : انماط الحنفيا ص ١٩

سيفاً كما قدم إليه عشرين فرساً مسرجة ملجمة ومنحه خمسين ألف دينار ومائتي ألف درهم . وقد منح المزمع جوهراً هذه الهدية إصباحاً بما أصابه من التناح في فتوحه وتقدير لما قدمه إليه جوهراً من تلك الهدية القيمة التي أتينا على وصفها .

ولما فرغ المزمع من الاحتفال بعيد الفطر ، ركب إلى القدس ، وأشرف على أسطوله ، وقرأ عليه وعوده ، وخلف عليه جوهراً والقاضي النعمان ، ثم عاد إلى قصره (١) . ومن هنا تبين أن جوهراً كان لا يزال يتمتع في ذلك الوقت بشيء من النفوذ الذي كان يتمتع به قبل وصول المزمع إلى مصر .

* * *

ظلت . مقاليد الأمور في مصر بيد جوهري حتى قدم المزمع في سنة ٥٣٢٢هـ . وقد استأثر المزمع بكل ما كان يتمتع به جوهري من النفوذ . على أن جوهراً قد بقي بجانب المزمع يدله على أحوال البلاد ويعيد عليه بما تتطلبه من وجوه الإصلاح .

ولم يذكر التاريخ شيئاً يدل على أن المزمع قد حفظ لذلك الصانع العظيم ما كان له من الأيادي البيضاء على الدولة الفاطمية ، وما قام به من فتح مصر والشام وفلسطين وثبتت دعائم الفاطميين فيها ونشر الدعوة لهم بها ، وصدد غارات القرامطة عن مصر ، تلك الغارات التي كادت تنقض على الدولة الفاطمية الناشئة . وكل ما حفظه لنا التاريخ أن المزمع — على الرغم مما حياه جوهري من اللطف وأولاه من الثقة وحسن التقدير — قد أقصاه عن مناصب الدولة الكبيرة كالخراج والحسبة والسواحل والأعشار والجواري والأجاس

والمواريت والشرطين وغيرها ، وقلعها يعقوب بن كاس ووصلح
ابن الحسن .

وهكذا نرى جوهرأ يتوارى قليلا قليلا عن مسرح السياسة المصرية ولم
يعد إلى الظهور إلا أواخر سنة ٨٣٦هـ ، حين تفاقم خطر أفتكين والحسن
ابن أحمد القرمطي واستصمى على المزم وقواد جيشه كبح جماحها ، فلجأ إلى
جوهر وولاه قيادة جيوشه . ولم يكن جوهر في تلك المدة أقل إخلاصاً
وولاءاً لمولاه المزم ثم لابنه العزيز من بعده مما كان عليه من قبل ، وكان ذلك
آخر عهد جوهر بالشئون العامة في مصر .

وهنا نقابل من السبب في موقف المزم إزاء هذا القائد العظيم والقامح
الكبير وإقصائه إياه عن المناصب المهمة في تلك البلاد التي تم فتحها على يده .
ولعل المزم قد سلك مع جوهر مأسلكه غيره من الخلفاء قبله مع عظماء قوادهم
من مؤسسي الدول وذوى الشخصيات البارزة . وذلك لما كانوا يخشونه
على تفوزهم أن يقتل إلى هؤلاء . ولن نموزنا للمثل للتدليل على صحة هذا
القول : فقد قتل أبو جعفر المنصور أبا مسلم الخراساني الذي قامت على
أكتافه الدولة العباسية ، وكذلك فك هيد الله المهدي بأبي عبد الله الشيعي
بعد أن انتشرت على يده الدعوة الشيعية وتأسست الدولة الفاطمية في بلاد
المغرب . على أن جوهرأ — وإن جازاه المزم على فتوحه جزاء سيئ —
فقد كان أحسن حالا من غيره من القواد القامحين ، كأبي مسلم وأبي عبد
الله الشيعي .

نشيت سلطان الفاطميين في سورية

قد ذكرنا كيف تفاقم خطر أفتكين والقرامطة في الشام واستصمى أمرهما
على الخليفة المزم ، والآن نبين كيف تم القضاء على أفتكين والحسن زعيم
قرامطة ، وكيف طادت بلاد الشام إلى سلطان الفاطميين .

توفي المزم في ربيع الآخر سنة ٣٦٥ هـ (سنة ٩٧٥ م) وتولى الخلافة من بعده ابنه المزم . فكتب إلى أفتكين يستميله إليه ويعدده حسن المكافأة إذا جلا من دمشق . فرد عليه أفتكين يرد جاف جاء فيه : هذا بلد أخذته بالسيف وما أدين فيه لأحد بطاعة ولا أقبل منه أمراً ، (١)

وقد استاء المزم من ذلك الكتاب ، وحنق على أفتكين واستشار وزيره يعقوب بن كلس في الأمر ، فأشار عليه بتولية جوهر قيادة جيش يرحف على دمشق ويهاجم أفتكين لإخراجه منها عنوة . فوجد المزم في جوهر رجلاً الساحة الذي يعتمد عليه ويركن إليه في استقرار الأمور في بلاد الشام وتثبيت افتتاح الفاطميين بها ، كما اعتمد عليه المزم في فتح مصر بعد أن استعصى على خيرة من النخفاء والقواد . وكان جوهر عند ظن المزم به .

سار جوهر سنة ٣٦٦ هـ على رأس جيش عظيم لقتال أفتكين والقرامطة فلما علم القرامطة بذلك وم في الرملة فروا إلى الأحساء . فدخلها جوهر واحتلها .

ولما علم أفتكين بمسير جوهر إلى دمشق واحتلاله الرملة ، استأجر حماس أهل دمشق بتلك النخبة التي تنقلبها من ابن القلانسي (٢) : « وقد علمت أنني لم أتوسطكم ، وأتولى تدبيركم إلا من رأيكم ومراكم ، وقد طلبت من هذا السلطان ما لا طاقة لي به . وأنا نادم عرف عنكم ودخل إلى بلاد الروم ، وطامل على طلب موضع أكون فيه ، واستعدما أحتاج إليه منه ، لتلا يلحقكم بقعد من يقدمكم ما يشغل به الرعاة عليكم ، ونصل به المضرة إليكم » .

ويظهر أن أفتكين قد أظفح في سياسته ، فقد جدد أهل الشام نفقتهم به ، يدل على ذلك ما جاء في ردده على خطبته من تلك العبارة : أما أخوتناك

لسياستا ورياستا، هل أن نمكنك من تركنا ومفارقتنا أو تألون جهداً من نفوسنا ومساعدتنا؟ دونك وبين يديك في المدافعة عنك ..

وكان بيد جوهر أمان من مولاہ العزيز لأفنديين، وغانما، ودستان من ثيابه، وكتاباً بالغو عنه لما فرط منه . فلما وصل جوهر إلى الرملة كتب إلى أفنديين في لين ورقى، وذكر له ما كتبه له العزيز من الأمان وما أعد له من الهدايا، وأشار عليه بترك الفتنة حتى يعود الأمان إلى نصابه . فكتب إليه أفنديين يشكر له حسن سعيه لدى العزيز، واحتذر بعدم قبول أهل دمشق ما جاء في كتابه . ثم سار أفنديين من عكا إلى طبرية حيث انضم إلى القرامطة واستمد لقاء جوهر وجمع الأقوات من بلاد حوران والبيشة، ثم دخل دمشق وتمصن فيها .

ترك جوهر دمشق في ٢٢ ذي الحجة سنة ٣٦٦ هـ فبنى سوراً بضم عسكريه وخفر خندقاً كبيراً . ثم جمع أفنديين الجند للقتال، ووقعت بينه وبين جوهر حروب طويلة دارت فيها المأثرة على أفنديين في ٢١ ربيع الأول سنة ٣٦٦ هـ رغم ما أبداه من شجاعة فائدة كانت موضع إعجاب أهل دمشق . وقد عرض عليه أهل الشام أن يكتب إلى الحسن القرمطي يطلب منه السير إليه ومماوته على قتال المغاربة . فلبى الحسن طلب أفنديين ودار إلى دمشق، ولا شك أن جوهر لم ينس مصير جعفر في حربه مع القرامطة سنة ٣٦٠ هـ . فطلب جوهر الصلح على أن يجلو عن دمشق، ولا سيما حين رأى أن موارده قد نضبت وأن المؤونة قد أعوزته، وهناك معظم جنده . وهذا يفسر لنا قوة القرامطة وقضوهم ونظامهم في الحروب، حتى إن مجرد نأ سديم كان كافياً لتراجع قائد عظيم كجوهر وإسراعه إلى طلب الصلح .

أجاب أفنديين جوهر إلى طلبه . فرحل هذا عن دمشق في ٣ جمادى الأولى سنة ٣٦٦ هـ، وجد في المسير لاقرب القرامطة منها، ثم ذهب إلى طبرية . فلما بلغ ذلك الحسن بن أحمد زعم القرامطة سار إليه بعد أن رحل

جوهري عنها إلى الرملة . فبث الحسن سرية لقتاله ووقع بين الفريقين موقعة قتل فيها كثير من العرب . ثم ذهب إليه الحسن وتبعه أفتكين لقتال جوهري ^(١) . وانضم إليهما من أهل الشام أكثر من خمسين ألفاً ، ونزلوا بنهر الطواحين على بعد ثلاثة فراسخ من دمشق ، وكان المورد الوحيد للماء في هذه الناحية .

فلما رأى جوهري أن أفتكين قد أخذ عليه الماء ، وأنه لم يكن أمامه إلا الماء الأمطار التي يجمعها في الصهاريج بما لا يكفي جنده الكثيف ، كتب إلى العزيز يخبره أنه لا يستطيع البقاء في هذا المكان وأنه لا قبل له بمقاومة جيوش أفتكين والقرامطة ، وطلب إليه أن يأذن له بالتوجه إلى صقلان إذا دعه الحال . فأذن له العزيز بذلك ، فأدلى جوهري إليها ووصل في آخر الليل . فتبعه أفتكين والحسن القرمطي ، وحاصروا فيها ، حتى ندرت المؤن ، وعزت الأقوات فارتفعت الأسعار ونزل بالأهلين ضيق شديد . وكان الوقت شتاء لا يسهل معه حمل المؤن إلى جوهري في البحر ، واشتدت الحال حتى أكل المتأخرة الدواب الميتة ، وابتاعوا الجوز كل خمسة أرطال شامية بدينار معروى ^(٢) .

ولا شك أنه كان لشجاعة جوهري وبعد نظره الفضل في الخلاص من هذا المأزق الحرج ، في الوقت الذي كانت جيوشه تقع فريسة لجيوش أفتكين

(١) ذكر المقرئ : (الخط ٢٢ ص ٩) أن الحسن القرمطي توفى بالرملة سنة ٣٩٦ هـ وقام بأمر القرامطة من بعده ابن عمه جعفر ، فأفسد علاقات المودة بين أفتكين والقرامطة . بينما يقول ابن التلاني إن الحسن ظل يتأصب القاطنين الماء ويشير التلاني والفتن في سورية حتى سنة ٣٩٨ هـ ، حيث هرب من ميلاد القتال بعد أن هزمه العزيز . ونحن نرجح ما ذكره ابن التلاني ، فقد نصب نفسه جامع تاريخ دمشق دون غيرها من البلدان ، هذا إلى أنه قد سبق المقرئ بنحو ثلاثة قرون ، فقد توفى سنة ٥٥٥ هـ ، بينما توفى المقرئ سنة ٨٤٥ هـ

(٢) ابن التلاني : ذيل تاريخ دمشق ص ١٦ - ١٧ .

والحسن القرمطى . فقد حمل على القضاء على ذلك التحالف المتين الذى كان يربط القرامطة بأفتكين والذى كان الترضى الأول منه القضاء على سلطان القاطمين في بلاد الشام وانزعاجها من أيديهم .

أراد جوهر أن يصل بالين والدعاء ما حصر عن الوصول إليه من طريق الحرب والقتال . فلا عجب إذا رأينا يكتب إلى أفتكين يطلب إليه المهادنة وإحلال الرئام والصفاء محل المشاحة والبغضاء ، ثم يبعث إليه الرسل يطلبون منه الاجتماع به . حتى إذا ما تم هذا الاجتماع رأينا جوهرأ يصل إلى غايته بفضل ما وهبه الله من الدعاء والحرم . وقد مهر جوهر في هذه السياسة مهارة كبيرة . فأتى أفتكين من ناحية الدين وطلب إليه حقن دماء المسلمين والعمل على إخماد نار الفتنة ، بينما كان يعمل في الوقت نفسه على التفرقة بين أفتكين والحسن القرمطى . حتى إذا ما نجح بعض الاقتراح في ضم عرى التحالف القائم بينهما ، استطاع في النهاية أن يقضى عليهما جميعاً .

وقد ذكر ابن القلانسي^(١) أن جوهرأ قال لأفتكين حين اجتمع به : قد علمت ما يجمعني وإياك من حرمة الإسلام وحرمة الدين . وهذه فتنة قد طالت ، وأريق فيها الدماء ، ونحن المأخوذون بها عند الله . وقد دعوتك إلى الصلح والمودة والدخول في السلم والطاعة ، وبذلك لك كل اقتراح وإرادة وإحسان وولاية . فأبيت إلا القول عن يشب نار الفتنة ويستمر هناك وجه التضيعة . فزأب الله تعالى وراجع نفسك ، وظل رأيك على هوى غيرك . فأجابته أفتكين : أنا والله وأنتى بك وبصحة الرأي والمفورة منك . لكننى غير متمكن مما تدعونى إليه ، ولا يرضى القرمطى بدخوله فيه . فرد جوهر عليه : إذا كان رأى والأمر على ذلك ، فأتى أحدك على أمرى ،

تحويلاً على الأمانة ولما أجده من الفترة عندك . فقد ضاق الأمر وامتنع الصبر ، أن تمن على بنفسى وهؤلاء المسلمين الذين معى وعندى ، وتقدم لى لأضى وأعوذ إلى صاحبى شاكرآ . وتكون قد جمعت بين حقى العامة واصطناع المروءة ، وهدئت على وعلى صاحبى مئة تحسن الاحدوة فيها ، وربما أملت المقابلة لك عنها . فقال أفتكين : « افعل وأمن على أن أخلق سببى وروح الحسن بن أحمد على باب صقلان ، وتخرج أنت وأصحابك من تحتها . فرضى جوهر بذلك وتماهدا ، وأخذ ختم أفتكين رهينة على الوفاء بذلك . واقترب القاتدان ، فباد أفتكين إلى صكره ، ورجع جوهر إلى صقلان ، ثم أرسل جوهر إلى أفتكين الهدايا والكرامات .

وقد بعث أفتكين إلى الحسن القرمطى يعلمه بما كان بينه وبين جوهر . فذهب الحسن إليه وقال له : لقد أخطأت فيما فعلته وبذلك . وجوهر هذا ذو رأى وحزم ودهاء ومكر ، وقد استقلك بما عقده مملك . وسيرجع إلى صاحبه ويمسكه على قصدنا ، ثم لا يكون لنا به طاقة ، فإخذنا . ومن الصواب أن ترجع عن ذلك ، حتى يهلك هو وأصحابه جوها ، وتأخذم بالسيف . فتسلك أفتكين بما عاهد جوهرأ عليه وقال : « قد عاهدته وحلفت له ، وما استجير القدر به . » وقد هلك السيف والرمح ، فخرج جوهر وأصحابه من تحتها (١) .

ولاشك أن جوهرأ لم يكن بمجهل المأثور والغاية تبرز الواسطة ، فقد رضى أن يمر هو وجنده تحت سيف أفتكين وروح الحسن القرمطى ، فى الوقت الذى كان يعلم فيه أن ذلك الحل فيه شئ . غير قليل من المدة والمهانة بالنسبة إليه وإلى الفاطميين . بيد أن جوهرأ كان يزن عواقب الأمور ويعرف كيف يتلافى الخطر قبل وقوعه ، ومن ثم استطاع أن يخرج من هذه الحروب سالماً ظافراً . على أن جوهرأ إنما قصد من ذلك أن يكسب الوقت ، حتى إذا ما أتت الفرصة ضرب أفتكين والقرامطة جميعاً . ولم يكن الحسن القرمطى ينقل من هذه

(١) ابن القلائى : ذيل تلخيص دمشق ص ١٧-٨١

الحقيقة حين أخبره أفتكين بما تم بينه وبين جوهر ، تلك الحقيقة التي تليها من قول القرمطي : « وجوهر هذا ذوى رأى وحزم ودعاء ومكر ، وقد استغفك بما عقدته منك وسيرجع إلى صاحبه ، ويحمله على تصدينا ، ثم لا يكون لنا به طاقة » . والفضل ما شهدت به الأعداء .

وصل جوهر إلى مصر ودخل على العزيز بالله ، وشرح له حقيقة الحال في بلاد الشام . واستفحال أمر أفتكين ومن معه . فقال له « ما رأى ؟ » قال : « إن كنت تريد ، فأخرج نفسك إليهم وإلا فإنهم واردون على إثري » فأمر العزيز بإعداد العدة ، وخرج على رأس جيش كبير مزود بالماؤن والداخثر وجوهر على مقدمته .

فلما علم أفتكين والحسن القرمطي بما عقد العزيز لهم عليه ، ماذا إلى الرملة حيث تلاقى الجيشان ، وحى ومطيس القتال^(١) ، « وجال أفتكين بين الصفيين يكر ويحمل يطمع ويخرب » . فقال العزيز لجوهر « أرى أفتكين ، فأشار إليه ، وهو يطمع تارة بالرمح ويخرب أخرى بالسيف ، والناس يتحاشونه ويتقونه » . فأعجب العزيز ما رأى من فروسيته وشجاعته . ثم وقف العزيز ، وأنفذ إليه رجلاً من عنده يقال له نعيمة ، وقال له : قل يا أفتكين أنا العزيز وقد أزعجتني عن سرير ملكي ، وأخرجتني لمباشرة الحرب بنفسى ، وأنا مساعك جميع ذلك ، وما نفع لك عنه ، فترك ما أنت عليه وقد بالغت منى . فكلم هداثة وميثاقه ، أتى أؤمك وأصطفيك ، وأوفه بأهلك ... وأحب لك الشام وأتركه في يدك ،^(٢) .

مضى نعيمة إلى أفتكين وبلغه رسالة العزيز . فخرج أفتكين بحيث يراه الناس ، وترجل ، وقبل الأرض مرراً ومرغ خديه عليها مفراً وقال : « قل

(١) العزيزي : النبط ج ٢ ص ٢٨١

(٢) ابن قتلاسي : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨

لأمير المؤمنين لو تقدم هذا القول منك لاسرحت إليه ، وأطعت أمرك ، فأما الآن فليس إلا ما ترى ، . وماذ نعمة ونقل إلى العزيز ماسمع ، فقال له : « إرجع إليه وقل له يقرب مني بحيث أراه ويراني . فإن استحققت أن يضرب بالسيف فيقتل ، . قضى نعمة وأبلغه ذلك فقال : « ما كنت الذي أشاهد طاعة أمير المؤمنين وأنا بذه الحرب ، وقد خرج الأمر عن يدي . . ثم حمل على مسيرة الفاطميين ، فهزمها وقتل كثيراً من رجالها . وشاهد ذلك العزيز بيني رأسه فحمل بمينة جيشه والمظلة على رأسه ، فهزم أفتكين والقرمطي في يوم الخميس ٢٣ المحرم سنة ٢٣٦ هـ وأهل السيف في جيشهما وقتل من جندهما نحو عشرين ألف رجل . وفر الحسن القرمطي هارباً راضياً من الغنيمة بالإياب .

وبذلك قضى العزيز على رأس تلك الفتنة بعد أن كادت تقوض دعائم الدولة الفاطمية . وفر أفتكين على فرس له ، فقبض عليه بعض العرب بعد أن هذل العزيز لمن يحى به مائة ألف دينار ، وأرسلوه إلى العزيز ، فأمر أن يشهر به طيف على جمل ، فأخذ الناس يلطمون وجهه ، ويذرون لحية ، حتى رأى في نفسه البر . .

وسار العزيز ومن معه من الأسرى إلى القاهرة . فأحسن الخليفة إليهم ، وأمنهم وكسام ، وأسند إليهم الأعمال التي كانوا يولونها أيام أفتكين . أما أفتكين فقد خرج جنود الفاطميين لاستقباله ، ولم يشك أحد في أنه مقتول لاحالة .

وهنا ظهرت صفات العزيز النادرة ، وجهه العفوف عند المقدرة مع رجل دوخ الفاطميين وكاد يقضى على دولتهم وهي في عنفوان قوتها وكل فتوتها . هل أنه كان لجوهر أثر كبير في ذلك العفو بالرغم مما أنزله أفتكين به ويجهده ، فطلباً عمل على تطيف مزاج مولاه العزيز وتهدئة نفسه للثائرة

حدد ذلك العدو الذي أطلق باله وعكر صفو حياته وجعل دولته قاب قوسين أو أدنى من الزوال .

وبعدئذا ابن القلانسي أن أفتكين لما دخل على العزيز في مرادفه ترجل عن دابته وقبل الأرض بين يديه وحمل إلى دست قد نصب له ليجلس عليه . فلم يكن من أفتكين . إذاً الحفاوة به وبرجاله ، إلا أن رى بنفسه إلى الأرض وألقى ماعلى رأسه وبكى بكاءً شديداً سمع الحاضرون نشيجه وقال : « ما استحققت الإبقاء على ، فضلاً عن العفو الكريم والإحسان الجسم ... » وامتنع من الجلوس في البيت وقد بين يدى العزيز . وقد ألبسه جوهر على إثر وصوله من ملابس العزيز وهذا روعه . لجدد الهدوء وتقبل الأرض وشكر جوهر أعل ما أظهره نحوه من كرم ونبل .

وقد بالغ العزيز في إكرام أفتكين ، فأسكنه داراً فسيحة ، وأغدق عليه صلاته وصلاياه ، وظل أفتكين ممتعا بنعم العزيز حتى مات في سنة ٥٣٧٢ هـ . وقد اتهم يعقوب بن كلس وزير العزيز بقتله بالسلم لرفع أفتكين عنه ، فأمر به العزيز فحبسه مدة حتقائه عليه ثم أطلقه .

وهكذا توطد سلطان الفاطميين في سورية ، فأصبحت ولاية فاطمية حاضرتها دمشق . وظلت على ذلك إلى أواخر عهد الدولة الفاطمية ، حيث استغل محمود نور الدين بن زنكي بدمشق واستولى الصليبيون على معظم أرجاء فلسطين ، ثم أصبحت بعد ذلك جزءاً من أملاك الدولة الأيوبية .

تقدير جوهر

إلى هنا انتهى بنا البحث في حياة جوهر ، ذلك الكاتب الكبير والقائد المحنك والسياسي الخليل . وقد اختلف علماء الاجتماع في عطاء الرجال وذهبوا فيهم مذاهب شتى . فمنهم من يرى أن الرجل العظيم هو الذى يخلق الظروف ويرغم الحوادث على السير طوع إرادته ، ويضطرها إلى المضى فى الطريق الذى يشقه لها ، ومنهم من يرى أن الرجل العظيم هو ابن الساعة ووليد الظروف ، تخلق الأيام وتنفث الحوادث وتبهي له من الفرص ما لا يتهيأ لغيره وتخلق عليه من مظاهر العظمة ما ترضى به على سواه . وقد اجتمع في جوهر الرأيان جميعاً . فإتانا نظراً نظرة إجمالية إلى حياة هذا القائد ، رأينا أن عناصر عظمته هى مزيج من الحظ المؤان والكفاءة الشخصية النادرة .

ولا غرو وقد كان لجوهر من المواهب ، التى طالما أملت إرادتها على الأيام وفرضت رأيها على الحوادث ، ما يجعل منه قائداً موقفاً وسياسياً حكيماً . إلا أن هذا وحده لا يكتفى . لو لم تنح له الظروف الاتصال بالمرء وهو لا يزال يبلد المغرب ، فيؤليه ثقته ويؤليه إمرة جنده وقيادة جيشه لإتمام فتح ما بقى من بلاد المغرب وإخضاعها لسلطان الفاطميين . وهنا تظهر مواهبه النادرة وقوة شكيته . فقد أخضع بلاد المغرب كلها لسلطان المرء فى أقل من سنة . وهكذا تسكقت ظروف الرجل ومواهبه فى وضع الحجر الأساسى لمجده .

ولم تقف ثمة المرء بجوهر عند هذا الحد ، فقد جله على رأس الخلافة التى وجهها لفتح مصر ونشر الدعوة الشيعية بالشرق ، بعد أن فشل فى ذلك من سبقه من القواد الفاطميين . على أن حظ جوهر فى مصر لم يكن أقل منه فى بلاد المغرب . فقد سادتها الفوضى وعم فيها الاضطراب عقب وفاة كافور . وبلغت الدولة العباسية درجة كبيرة من الضعف والاضلال صبرت معها عن إرسال الجنود لصد الأعداء منها كما فعلت من قبل .

وعلى الرغم من وقوف المزمع على حقيقة الحال في مصر وما كانت عليه من ضعف ، قد رأى أن فتحها يحتاج إلى عقل راجع وقيادة حكيمة . فاختار جوهرأ بعد أن خبره كاتباً ووزيراً وقائداً فتحت له البلدان المنيعه في بلاد المغرب أوهايا . وكان جوهر عند ظن الخليفة به ، قم على يده فتح مصر واتخذها الفاطميون قاعدة لخلافتهم . وكان لمهارة جوهر وحسن سياسته أثر كبير في استتباب الأمن وتأليف قلوب الأهلين بالرغم من ينضمهم للذهب الشيى ، مذهب الفاطميين .

وقد نفذ جوهر السياسة الفاطمية التي كانت ترمى إلى اتخاذ مصر جسراً يبر عليه الفاطميون إلى المشرق لتأسيس خلافة فاطمية شاسعة الأرجاء . وكان اختيار المزمع جوهرأ لتنفيذ تلك السياسة اختياراً موفقاً . فإن سلطة الفاطميين لم تتوطد في بلاد الشام وفلسطين حتى خرج إليهم جوهر بنفسه بعد أن أخفق في ذلك جعفر بن فلاح ، وانفض الناس من حوله ، وتخاذل عنه الجند وخر صريماً في ميدان القتال ، لما كان يعوزه من الحزم وبعد النظر وحسن السياسة ، تلك الصفات التي امتاز بها جوهر .

وقد ساعد الحظ جوهرأ ، ففضى على القرامطة وردم عن مصر مهزومين مدحورين ، وطالما تاقوا للإطارة عليها وفتحها كما أغاروا على غيرها من بلدان المشرق . ولولا قوة جوهر ومهارته الحربية لم لقم القرامطة ما أرادوا وأنزلوا سلطان الفاطميين في مصر ، ولما تثبت دعائمه فيها .

لا زالت آثار جوهر في مصر تتنطق بأيادى القائد العظيم والفتح الكبير فهو منشئ القاهرة ، تلك العاصمة التي لم تلبث أن بنت خيرها من العواصم الإسلامية ، وأصبحت منار الحضارة الإسلامية التي انبسط نورها على الآفاق ، قد فاقت القاهرة بخداد عاصمة الخلافة العباسية وقرطبة حاضرة الأندلس في الأندلس ، وأصبحت مركز العلوم والفنون والآداب ، وكعبة العلماء ، وعط رحال الشعراء والكتاب . ناهيك ما ذكره ناصرى خسرو ، ذلك الرحالة الفارسي الذي طاف بجميع البلدان الشرقية وشاهد بنفسه ما وصلت إليه

من المدينة والحضارة ووقف على ما بلغت من العلم والفن ، فقد قال في كتابه :
« سفر نامه ، إن القاهرة قد سبق في عهد الفاطميين هذه البلاد جميعا في كل
ناحية من نواحي الحياة .

وما يدل على حنكة جوهر وعلو كعبه في السياسة ، أنه لم يلجأ إلى وسائل
العدو والنف في نشر المذهب الفاطمي وإنما لجأ إلى الوسائل السلبية . فاعتمد
على المساجد التي اتخذها أشبه بمدارس تتلقى فيها الأهالي تعاليم هذا المذهب ،
دون أن يفرض على أحد اعتناقه . فقد أنشأ الجامع الأزهر ليكون مركزاً
لتدريس تعاليم المذهب الفاطمي حتى لا يتأيق المصريون السنيون في شعورهم
الديني في المساجد الأخرى . وعلى الرغم من دراسة هذا المذهب فيما عدا
الأزهر من المساجد ، فإن التاريخ لم يذكر لنا أن الناس كانوا يساقون لتلقي
تعاليم هذا المذهب كرهاً . يد أن هذا التسامح لم يصرف جوهرأ عن الفرض
الأول من سياسة الفاطميين ، وهو تعميم هذا المذهب بين المصريين . فقد لجأ
في جذبهم إليه إلى الوسائل المادية ، وذلك باستناد مناصب الدولة الهامة إلى
معتنقي هذا المذهب مصريين كانوا أو مغاربة .

وكان جوهر أحسن مثل للحاكم العادل ، فقد كان يجلس العظماء بنفسه ،
فيقضي بين الناس بالعدل ويرد الحقوق إلى أصحابها ، ويضرب على أيدي
المتعدين والمباشرين بالنظام والأمن ، ولو كانوا من عاصته وخطأته . فقد
ضرب على أيدي الجند المنغاربة ومنهم من التحدى على الأهلين ، حتى كان
يعاقب المتعدين منهم بالقتل جواراً لهم وردعاً لغيرهم . فكان مثله في ذلك مثل
عمرو بن العاص وأحمد بن طولون وعبد بن طنج الإخشيد وصلاح الدين
الأيوبي وغيرهم من خيرة الأمراء وكبار الساسة الذين تولوا الحكم في مصر
في العصر الإسلامي .

ولاشك أن جوهرأ يعتبر مؤسس الحضارة الفاطمية في مصر خاصة
والشرق عامة . وكان مولاه للمريثي به ثقة لاحد لها . فقد ترك له ولاية

مصر أربع سنوات لم يفكر خلافاً في الحضور إليها وتسلم مقاليد الحكم فيها حتى ألح عليه جوهر في ذلك، بما يدل على أن الممركز كان يرى في جوهر الجدارة بالاضطلاع بحكم مصر وإدارة شئونها .

على أن نفوذ جوهر لم يلبث أن تضائل أثر قدوم الممركز إلى مصر ، فأفل بحجمه وذلك دولته وهذا أمر طبيعي : فقد عرف المصريون جوهر وأحبه ودانوا له بالطاعة وأصبح ذا شتمية بارزة ونفوذ قوى . فلما أشركه معه الممركز في حكم هذه البلاد لسقطت هيئة الخليفة الفاطمي وتلاشى سلطانه . لذلك لا نحب إذا عرف جوهر عن الأعمال العامة عقب وصول الممركز ، فلم يعد إلى الظهور إلا في فتوح سورية في عهد العزيز حين اشتد خطر القرامطة وأفتكهنه وكان ذلك في آخر عهد جوهر بأعمال الدولة . فإنه بعد أن وطئ سلطان الفاطميين في سورية وعاد إلى مصر سنة ٣٧٨ هـ ، أمهله العزيز كما أمهله الممركز من قبل ، فلم يداره وأصبح نسياً منسياً .

وقد أحفظ جوهر أعمال الممركز والعزيز له وقال من نفسه عدم تقديرهما ما كان له من الأيادي في توطيد سلطان الفاطميين . فقد ذكر المقرئ (١) أن منجوتكين (٢) التركي خرج من قصر العزيز سنة ٣٨١ وهو يمتثل لجوارده ، وفي حاشيته القائد جوهر وابن عمار وغيرهما من رجالات الدولة مشاة . وكلف يد جوهر في يد ابن عمار . فتشهد ابن عمار وزفر زفرة كاد ينشق

(١) المجلد ١ ص ٣٧٩

(٢) حدث جوهر أبا عمار أنه لما وصل الممركز إلى مصر عرض عليه الأسرى . وكان من بينهم منجوتكين هذا ، وكان لا يزال غلاماً . فلما رآه الممركز نظره إليه وتأمله ، فلما انتهى جوهر من عرض الأسرى قال للممركز « يا مولانا لقد قطعت لما رأيته هذا التركي ما لم تقطه مع من تقدمه » . فقال « يا جوهر اسوف ترى أن يكون لبعض ولدنا غلام من هذا الجنس تم على يده فتوحات عظيمة » . ثم قال جوهر لابن عمار : « وأنا أعلم أن ذلك الغلام هو الذي كان يعنيه مولانا الممركز » .

لما صدره وقال : « لاحول ولا قوة إلا بالله » فزع جوهر يده منه وقال :
« قد كنت عندى يا أبا عمار أثبت من هذا . . . لكل زمان دولة
ورجال . أريد نحن أن نأخذ دولتنا ودولة غيرنا ؟ لقد أرجلنى ، ولما
المز لما سرت إلى مصر أولاده وإخوته وولى عهده وسائر أهل دولته ،
فتسبب الناس من ذلك . وما أنا اليوم أمشى راجلا بين يدي منجوتكين .
أهرونا وأهروا بنا غيرنا . وبعد هذا أقول اللهم قرب أجل وموتى ، قد
أنقذت على الثمانين . »

وفى تلك السنة احتل جوهر فماده العزيز بالله ، وأرسل إليه خمسة آلاف
دينار ، ثم بعث إليه الأمير منصور بن العزيز خمسة آلاف دينار أخرى .

وتوفى جوهر فى يوم الاثنين ٢٣ ذى القعدة سنة ٢٨١ هـ . فبعث إليه
بالحنوط والكفن الخليفة العزيز وابنه المنصور أبو على ، الذى ولى الخلافة
بعد أبيه . وتلقب بالحاكم بأمر الله (٢٨٦ - ٤١١ هـ) . وكفن جوهر فى
سبعين ثوبا ما بين مثقل وموشى بالذهب ، ثم صلى عليه العزيز بالله ، ودفن
بالقراة الكبرى ، على ما ذهب إليه ابن إياس^(١) . وخلع العزيز على ابنه الحسين

(١) ص ١٤٠

انفرد ابن إياس بذكر الموضع الذى دفن فيه جوهر . فلم يذكر لنا ذلك غيره
من المؤرخين كابن الزيات فى كتابه « الكواكب السيارة فى ترتيب الزيادة والنقصان »
فى كتابه « تحفة الأحباب وبنية الطلاب فى الخطط والمزارات والقرى والبلد »
المباركات ، ، وما من أم المصادر التى يمكن الرجوع إليها فى معرفة الأماكن
التي دفن بها مشاهير رجال التاريخ وكذلك القريدى الذى عني باستقصاء كل ما يتعلق
بالفاطميين . وأبو المحاسن والسيوطى وغيرهم من مؤرخى مصر الإسلامية .

أما المقبرتان التى كانت بالجهة الشمالية للأهرام للوقت قريب ، والتى يزعم بعض الناس
أن جوهر أصفى دفن فيها ، فهى مقبرة جوهر التى تباقى من أمراء المماليك ، وإليه
تنسب مدونة الجهورية (الخطط التوفيقية : ص ٢٠) قلنا من الضوء (الملاحق : ص ٢٠)

ابن جوهر وجملة في رتبة آية ، ولقبه بالقائد بن القائد ، ومكنه من جميع ما خلفه أبوه . ولم يزل محل حلف العزيز ورعايته حتى ولى الحاكم بأمر الله ، فقلده البريد والإفشاء سنة ٤٣٨٦ (سنة ٩٩٠) ورد إليه النظر في أمور الرعية وتدير أمور الدولة ^(١) .

هكذا انتهت حياة جوهر ، ذلك الكاتب العظيم والقائد المحنك والسياسي الماهر . فطويت بموته صفحة من صفحات المجد والعظمة . ولقد كان جوهر مقلداً حادلاً ، عشنا إلى الناس . لهذا لا نسيب إذا حزنوا لوفاته . فرفاه القدراء على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم حتى لم يبق بمصر شاعر إلا وثاه وشاد بأدبه الجم ، وعلمه العزيز ، وشخصيته الكبيرة ، وصفاته العالية ، ومواهبه النادرة .

فرحم الله جوهر أ فإن مثله في الرجال قليل .

الباب الثاني

دولة الفاطميين

التي أقامها جوهر الصقلي في مصر

(١) خلفاء العصر الفاطمي الأول (٣١٢ - ٤٨٧ هـ):

ظل جوهر الصقلي يحكم نفسه منذ أن تم له فتحها عام ٢٥٨ هـ حتى قدم إليها المعز سنة ٣١٢ هـ (٩٧٢ م) فاستأثر بكل ما كان يتمتع به جوهر من النفوذ وأخذ يعمل منذ تقلده زمام الخلافة على تنمية موارد الثروة واهتم بنشر عقائد المذهب الفاطمي في مصر وغيرها من البلاد وأنشأ أسطولا عظيما لم ير مثله ، ومات بعد وصوله إلى مصر بقليل .

وولى الخلافة بعد المعز ابنه العزيز بالله (٣١٥ - ٣٨٦ هـ) وهو في الثانية والعشرين في عمره وكان قد قدم مع أبيه إلى القاهرة سنة ٣١٢ هـ وعهد إليه أبوه بالخلافة. وما كاد العزيز يوطد سلطته في مصر حتى وجه عنايته لاسترداد بلاد الشام وفلسطين التين كانتا تابعتين لمصر في عهد الطولونيين والإخشيديين. وتم له ما أراد وتوطد سلطان الفاطميين في سورية وأصبحت تلك البلاد ولاية فاطمية ، حاضرتها دمشق ، وظلت على ذلك إلى أواخر عهد الدولة الفاطمية .

ووجه الفاطميون في عهد العزيز بالله اهتمامهم إلى بث عقائد المذهب الشيعي ، وأصبحت كل أمور الدولة في أيدي الشيعيين أو بعبارة أخرى في أيدي المغاربة أنصار الفاطميين ، ويرجع السبب في ذلك إلى أن سياسة الفاطميين كانت ترمي إلى إضعاف نفوذ السنيين تدريجاً .

وبنى العزيز كثيراً في المنفشات التي تدل على وفرة ثروة مصر في عهده .
القصر الغربي وكان يقع غرب القصر الشرقي الذي بناه جوهر الخليفة في
شرقي مدينة القاهرة في المكان الذي يقع فيه الآن خان الخليلي ومسجد الحم
تقريباً . وكان القصر الغربي الذي بناه العزيز أصغر من القصر الشرقي ، و
أطلق عليه القصر الغربي الصغير تمييزاً له عن قصر الممر وكان يقع مكان
النحاسين وجامع قلاوون تقريباً . وبين القصرين ميدان فسيح لمرض
أطلق عليه اسم « بين القصرين » .

وابنى العزيز قصوراً أخرى في عين شمس كما بنى في عهده قصر البحر الا
يقول ابن خلكان أنه لا يوجد شيء له في الشرق ولا في الغرب وإهم
المسجد كسجد الحاكم الذي أسسه سنة ٤٧٠ هـ ومات قبل أن يتمه فأنه
الحاكم ونسبه إليه . وأقام العزيز في جامع عمرو منهرا كان آية من آيات الله
كذلك أنه أنما فتحها وزينه بالستور الحريرية المزركشة بالذهب وكأ
كلها من رسم ولون واحد .

وكان الخليفة العزيز أول من حوّل الأزهر إلى جامعة وجعلها تحت
إشراف وزيره يعقوب بن كلس ونقل إليها الكثير من الكتب والمصاحف
وأجرى على الأساتذة العطايا والصلوات فكان يخلع النفيسة في الأعياد
ويحلمهم على البنغال اعترافاً بما لمركرم العلمى من أهمية وتقدير . وسرعان
التحق بالجامعة الأزهرية مشاهير العلماء في الفقه الإسلامى واللغة والادب
والمنطق والرياضة والطب وغيرها .

ومن أظهر صفات العزيز ميله إلى الآبهة وخبرته بالجواهر والنفام باله
وعصاة صيد السباع ، كما كان ذكياً أدبياً مستقراً ، مجيد عدة لغات ، كريماً
محبا للمنفى ، يعطف على النصارى واليهود . ومرض العزيز في بليس في ش
رجب سنة ٤٧٦ هـ وكانت في طريقه إلى الشام . ولما اشتدت عليه وط
المرض ، عهد إلى ابنه المنصور الذي تلقب بعده بالحاكم بأمر الله . ودفن



بعض عقود الجامع الأزهر - وهي من عهد إسماعيل

العزير مع آية المزم في إحدى حيرات القصر الشرقى الكبير وله من العمر ثلاث وأربعين سنة .

ولى الحاكم الخلافة (٢٧٦ - ٤١١ هـ) بعد وفاة آية وكان إذ ذاك حدثاً في الحادية عشرة من عمره قدام بأمر تربيته مريه بروجوان . وحياة الحاكم متناقضة متضاربة حتى أطلق عليه بعض المؤرخين صفات مختلفة وسماه الأستاذ مرجوليوت Margolionth ، الحاكم المجنون ، The Mad Hakem ، وقال عنه المقرئى ، إنه كان يعتره جناب في دماغه ولذلك كثر تناقضه وكانت أفعاله لا تامل وأحلامه وسياسته لا تؤل . من ذلك أنه أصدر سنة ٤٣٩ هـ مرسوماً يحرم بيع الملوخية لأنه أزعج معاوية أنه كان يحبها ، ونهى عن استعمال الجرجير لأن طائفة كانت تأكله ، ونهى أيضاً عن استعمال القرع وطلب إلى الفلاحين أن يطره وثائق كتابية يعدم زرع الملوخية والقرع والجرجير لأن أبى بكر وهائشة ومعاوية كانوا يحبون أكلها ثم نهى عن بيع الففعاخ وهو نوع من الحمرة وشدد في ذلك لأن عليا كان يكرها . وقد أسادت هذه الأوامر إلى السفين الذين كانوا يكونون السواد الأعظم من المصريين .

وإدعى الحاكم تحسم الإله في شخصه ونسب إليه أنصاره بعض الصفات التى لا يتصف بها إلا الله حتى اعتقد البعض أن يده الحياة والموت ، فكان إذا بدا للناس في الطرقات سجودوا له !

وذكر المؤرخ ابن زولا أن الحاكم اتخذ لنفسه جواسيس من الفناء يندسسون في دور بعض الناس لكشف ما يحدث في هذه الدور وتقديم تقارير عن ذلك في اليوم التالى إلى الخليفة الذى كان يستدعى هؤلاء وينهيهم بما حدث في يومهم . وكان نتيجة هذا أن أصبح بعض الناس يعتقدون أنه يعلم بالنيب .



مكتبة جامع الحام

وظهر تناقض الحاكم جلياً : حين حرم على الناس الخروج ليلاً من مغرب الشمس حتى مطلع الفجر ومنع النساء من الخروج ومن الظهور بغير متقيات والأيقين الجنائز أو يظمن للناس في حالة منافية للأداب والحشمة وحرم عليهم الظهور في أعلى المنازل ودخول الحمامات العامة ومنع صافى الأحذية من أن يملوا أحذية خاصة بهم ، وظل النساء في بيوتهم صبح سنين حتى ولي ابنه الظاهر .

ولكن رغم ذلك فإن الحاكم قد قام ببعض أعمال نافعة ، من ذلك أنه أنتم بناء جامع الحاكم الذي بدأه أبوه العزيز وزاد في بناء الجامع الأزهر . ومات الحاكم سنة ٥١١ هـ مقتولاً وقيل إن أخته ست الملك كان لها يد في قتله .



وجاء بعده ابنه الظاهر (٤١١ - ٥٢٧ هـ) وتمتع المصريون في عهده بالسلام والطمأنينة بعد عهد الاضطهاد والفرطى الذين ألصق بهما عهد أبيه الحاكم وكان الظاهر رجلاً عاقلاً عادلاً حليماً نكح الأخلاق فقد ألغى القوانين التي كان قد أصدرها أبوه .



وجاء بعد الظاهر ابنه المستنصر (٤٢٧ - ٥٤٨٧ هـ) وقد حكم مصر والبلاد التابعة لها ستين سنة ، وظهرت مصر في أوائل عهده بمظهر القوة والعظمة . وفي عهده زاد مصر ناصري خسرو الشاعر الفارسي فوصلها في صفر سنة ٥٢٩ هـ وأقام فيها إلى ذي الحجة سنة ٥٤٤١ هـ ، وكانت مصر حين زارها هذا الرحالة في عصر المستنصر في مجبحة من الجيش وكان الخليفة محبوباً من الشعب ولم يكن أحد ينجس سباً أو نياً وكان تجمهر الجواهر والسيارف لا يحفلون بإخلاق حرائقهم .

ولكن بعد ذلك طردت مصر المصائب وقد خفف من وقعها الوزير
اليازورى الذى قبض على زمام الأمور تسع سنوات وطال خطر المجاعة بوضع
يده على غازن الفلال ، وبعد وفاة هذا الوزير عادت الفوضى إلى مصر .
وكانت السلطة إذ ذلك بيد الجنود التركية فانتهزوا تلك الفرصة وتمهوا المدينة
وأصبح بيت المال خلوًا من المال المطلوب لإرضاء هؤلاء الجنود فلبأوا
إلى القوة للحصول على أرزاقهم المتأخرة . وفى سبيل ذلك أنفقوا قصور
الخلفاء الجنية وبددوا المجموعات الفنية التى لا تقوم ، والأحجار الكريمة
والمجوهرات ، وأغادروا على المكاتب المتقطعة النظير .

وقد شل الحركة الزراعية والتجارية فى الديار المصرية ، ذلك الرعب
الذى ألقته الجنود السودانية المنتجة فى جميع أنحاء البلاد . ولم يكن هناك
ما يخفف وطأة انخفاض الثيل أو ما يساعد على زراعة الأراضى الفصول الجديد
خضرت مدينة القاهرة ومدينة القسطنطين بندرة الأقوات شعورًا قاسيًا ، وبدأ
ما عرف فى تاريخ القاطنين باسم « القعدة العظمى » ، فيها بلغ نهم الرغيف ديارا
وكانت المنازل تباع بربع من الدقيق وعرضت الجواهر الثمينة تظفر شيء من
الطعام فلم يوجد من يشتريها ويبت الخيل والحمار والكلاب والقطة بأثمان
حالية ثم ندر وجودها وقلت دواب اسطبل الخليفة وأصبح الناس يحضنون
بعضهم بعضًا ويبيع لحم الإنسان عند الجزارين وأجرت بنت أحد الفقهاء
رغيفين على الخليفة كل يوم حتى رأى المستنصر نفسه فى إحدى حيراته
جالسا على حصير بالية لابسا قباقبا .

وانتهت أيام القعدة العظمى بموت ناصر الدولة بن حمدان زعيم الجنود
التركية ، وتوفى خلال سنة ٨٤٦٥ هـ ، وتخلد بدر الجمالى الوزارة . وكان أرمق
الأسل ، يعرف فيه المستنصر الحمة والبسالة وحسن الإدارة ، فاستعبد بالخليفة
ليقتضى على العناصر التركية المتنافرة لجاء إلى القاهرة وقبض على هذه العناصر
يد من حديد ووضع حداً للفوضى والجرائم وأعاد عهد سيطرة القانون ثم

تقرخ لإصلاح ما أفسده الأتراك: لحسن المدينة بأن أحاطها بالصور الذي يعرف باسم سور بدر الجمال وأصلح أبواب القاهرة وبنى جملع الجيوش وتلقب باسم أمير الجيوش. ومات المستنصر وبدر الجمال سنة ٤٨٧ هـ، أي في سنة واحدة.

٢ - خلفاء العصر الفاطمي الثاني (٤٨٧ - ٥٦٧ هـ) :

بعد المستنصر، جاء الخليفة المستمل (٤٨٧ - ٥٤٥ هـ)، ولم يقع في أيامه ما يستحق الذكر، ولم يكن له من الأمر شيء كثير أو قليل، لأن السلطة والتفوذ في عهد خلفاء العصر الفاطمي الثاني أصبحتا في يد الوزراء، وصارت تلك الظاهرة قاعدة الحكم، منذ أن بدأت وزارة الجمال: فكان المستمل مع وزيره الأفضل بن بدر الجمال، مسلوب السلطة، كما كان المستنصر مع أبيه بدر.

وبعد المستمل جاء الأمر (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ)، وقبض على ناصية الحكم في عهده الوزير الأفضل بن بدر الجمال وتمكن الأمر من بناء قصر المودج في جريرة الروضة لزوجته البدوية، ومن إنشاء جامع الأقمر. وتوفي عام ٥٢٤ هـ وخلفه الخليفة الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) الذي كان هو والخليفة الأمر مسلوب السلطة في عهد ذلك الوزير وفي عهد ابنه أبي علي بن الأفضل.

وذلك فإنه في ذلك العهد الأخير من أيام الفاطميين، أصبح الوزير وب السيف والقلم بمعنى أن كل أمور الدولة قد آلت إليه فاضف نفوذ الخلفاء ضعفا واضحا بحيث أصبحوا طوال ذلك العهد تقريباً تحت نفوذ الوزراء الذين استطلعت قوتهم وقضخت ثروتهم. ولا شك أن الخلفاء قد شربوا بشيء كثير من المضايقة لسلب السلطة منهم. وبعد مقتل الوزير الأفضل في عهد الخليفة الحافظ (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) تولى الوزارة أبو علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمال فتح الخليفة من التفرغ في أمور الدولة، ومنع الناس من زيارته إلا بإذن منه، ثم استول على ما في القصور من التحف ومنع ذكر اسم الخليفة في



جامع الأثر - الذي بناه الخليفة الأثر الفاطمي

الخطبة وذكر اسمه بدلا منه وتلقب بألقاب منها : ناصر لإمام الحق ، وهادي
المتنزة إلى اتباع شرع الحق ، ورافع الجور عن الأمم ، مالك فضيلتي السيف
والقلم . وفي هذا انتهى الدلالة على مبلغ سطوة الوزراء وضمف الخلفاء .

وروى بعد الحافظ الظاهر (٥٤٤ — ٥٤٩ هـ) ثم الخليفة الفائز (٥٤٩ —
٥٥٥ هـ) ثم جاء بعدهما الماضد (٥٥٥ — ٥٦٧ هـ) وهو آخر الخلفاء
الفاطميين . وكانت مصر في عهد هؤلاء الخلفاء الثلاثة في عهد انحلال ، انتهى
بسقوط هذه الدولة .

٣ — ينشأ سلطان الفاطميين :

يجب على من يريد معرفة كيف خرجت الاقطار التي أصبحت تحت سيطرة
الفاطميين عن سلطانهم ، أن يقتنع كيف تأسست الدولة الفاطمية في المغرب
وكيف امتدت بعد ذلك إلى الشرق ونحو ذلك إلى إمبراطورية :

١ — استولى أبو عبد الله الشيعي داعي دعاة الفاطميين على إفريقية وكانت
تشمل المنطقة المروقة اليوم باسم تونس . ثم مد عهده المهدي أول خلفاء
الفاطميين قوته على بلاد المغرب حتى مدينة فاس في مراکش ، كما اعترف
بسلطانه حاكم مقلية ، وبضعة عهده المهدي حملتين لغزو مصر ، وكان من
المحتمل أن يستولى عليها لولا قيام أهالي بلاد المغرب بالثورات في وجهه
طوال مدة حكمه .

٢ — وفي عهد الموحدين ، انتشر سلطان الفاطميين على شمال إفريقية ، بفضل
مهارة جواهر الصقلي وزيره بن مناد الصنهاجي . وفي سنة ٥٣٥٨ فتح جواهر
مصر وضمها إلى سلطان الفاطميين ، ثم فتح بعض جهات سورية ، ودعا أمير
مكة للموحدين على منازعته .

٣ — وفي عهد العزيز الفاطمي ، امتد قوذ الفاطميين على جزيرة مقلية



في البحر الأبيض المتوسط ، وانضمت جميع بلاد الشام إلى سلطان الفاطميين بفضل ما أظهره الخليفة العزيز والقائد جوهري من المهاراة الحربية .

٤ - وفي لسطر الأول من خلافة المستنصر ، اعترف الصليبي الفيني الذي أخضع بلاد اليمن والحجاز من حضرموت إلى مكة بسلطان المستنصر في اليمن حول سنة ٥٤٥هـ . وفي عهد المستنصر أقيمت الخطبة على منابر بغداد نحرًا من سنة على يد البساسيري .

هذا هو مدى امتداد الإمبراطورية الفاطمية في عهد الخلفاء الفاطميين . ولكن منذ عهد الخليفة الظاهر الفاطمي الذي اعتلى الخلافة منذ عام ٥٤١هـ ، بدأت الدولة الفاطمية في الانكماش .

١ - في بلاد الشام : خرج صالح بن مرداس الكلبي على الخليفة الظاهر واتجه إلى حلب وظل يحاصرهما إلى أن استطاع أخيراً الاستيلاء عليهما ، وكذلك تغلب ابن المفرج البديوي صاحب الرملة على أكثر بلاد الشام ، وكان لذلك أثره في إضعاف نفوذ الفاطميين في هذه البلاد .

٢ - وفي الحجاز : فقد حدث في عهد الظاهر أيضاً ، أن أحد الحجاج المصريين ضرب وجه الحجر الأسود ثلاث ضربات متواليات ، وقال : إلى متى يبعد الحجر ولا يمد ولا على يقدر أن على منى مما أضله ، إن أريد هدم هذا البيت . فلما علم بذلك المكبئون ناروا على المصريين وقتلوا جماعة منهم ونهبوا ما معهم من الأموال ، وكان من أثر ذلك أن سادت الملائكة بين المصريين والحجازيين ، وظلت الفتنة مشتتة بين الفريقين إلى أن استطاع أحد القواد المصريين ويعرف بأبي الفتوح حسن إخمادها .

٣ - وفي غرة شمال غرب الهند : كان بين الدولة محمود بن سبكتكين صاحب غرة قد هزم أمره ، فكتب إليه الظاهر كتاباً يدعوه فيه إلى طاعته وأرسل إليه الخلع . ولكن ابن سبكتكين لم يعبأ بالخليفة الظاهر .

ولم يكد يتولى الخلافة في مصر ، الخليفة المستنصر بالله الفاطمي ، الذي
تولى الخلافة عام ٤٢٧ هـ ، حتى تقلعت الإمبراطورية الفاطمية وانكشبت إلى
أضيق حدودها :

١ - فتار أهل إفريقية (٤٤٣ هـ) ضد الحكم الفاطمي وأظهروا استياءهم
من عقائد المذهب الشيعي واعترفوا بسلطان الباسيين ، ثم تكونت في بلاد
المغرب دول إسلامية مستقلة .

٢ - استقل روجر الزنمدي بصقلية ، بعد أن استولى عليها من الفاطميين
(٤١٣ هـ) . ورحل عنها العلماء العرب وخضع أهلها لسلطان الفرنجة .

٣ - قطعت الخطة للمستنصر في بلاد الجين ، على أثر وفاة الصليحي أمير
الجين ، الذي كان قد أقام الخطة الفاطميين .

٤ - قطع كل من أمير مكة والمدينة الخطة للمستنصر (٤٦٢ هـ) على أثر
انقطاع الأموال التي كانت ترد إليهما من مصر ، بسبب ما أصاب البلاد المصرية
من الأوبئة والمجاعات التي مورت شملها كل بحرق ، وخطبا الخليفة القائم بأمر
الله العباسي .

٥ - تمكنت جيوش الباسيين التي أرسلها ملكشاه السلاجوقي إلى الشام
من فتح الرملة وبيت المقدس ثم من فتح دمشق (٤٦٧ هـ) وقطع الخطة عن
المستنصر وإحلال الخليفة العباسي في الخطة مكانه .

٦ - لم يستمر إشراف الخليفة العباسي على شمال إفريقية ، بدثورة أهالي
تلك الجهات ضد حكم الفاطميين واعترافهم بسلطان الباسيين ، فإن الفرنجة
بعد استيلائهم على جزيرة صقلية تابعوا سيرهم حتى وصلوا إلى ساحل إفريقية
الشمال ، فاستولوا على مدينة المهدية العاصمة الأولى للدولة الفاطمية ببلاد

المغرب ، وظل الفرنجة بها إلى أن أجلاهم عنها الموحدون تحت قيادة زعيمهم عبد المؤمن بن علي الذي استطاع (١١٤٠ هـ) أن يحدد جيشاً كبيراً غزاه به بلاد شمال إفريقية فاستولى على مراكش والجزائر ثم على تونس ، وتابع الزحف شرقاً حتى حدود مصر الغربية وضم إلى سيطرته طرابلس وبرقة . وبذلك تم إبعاد المؤمن زعيم الموحدين ببلاد المغرب الاستيلاء على جميع أملاك الدولة الفاطمية في شمال إفريقية .

٧ - استقل نور الدين محمود بن زنكي بحلب ودمشق ، ثم احتل الصليبيون المدن الساحلية في فلسطين وسوريا . وما لبثت مصر والبقية الباقية من البلاد السورية أن أصبحت على النزاع بين نور الدين محمود والصليبيين عقب اشتداد النزاع على كرسى الوزارة في مصر الفاطمية الثاني ، وظهرت الجيوش النورية والصليبية على أرض مصر . وكان من أثر الحملات النورية على مصر بقيادة شيركوه ، أن أسندت الوزارة في مصر في عصر العاضد آخر الخلفاء الفاطميين إلى شيركوه . وبوفاة شيركوه بعد شهرين من وصوله إلى الوزارة ، أسندت الوزارة إلى ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، الذي أعاد إلى الأذهان سيرة أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية ومحمد الإخشيدي مؤسس الدولة الإخشيدية ، إذ استطاع صلاح الدين تأسيس الدولة الأيوبية التي استقلت بمصر مع النتيجة الإسمية للخلافة العباسية . ولم تعد مصر بذلك مقر خلافة بل أصبحت دار سلطنة .

٤ - سقوط الفاطميين :

ويرجع سقوط الفاطميين إلى أسباب عدة ، من أهمها : أن الخلفاء الفاطميين لما تركوا البساطة التي كانت تمتاز بها حياتهم الأولى أيام حكمهم في شمال إفريقية انفسوا في الترف والبلخ في قصورهم الجميلة في القاهرة وجعلوا إدارة دولتهم في يد مواليتهم من البربر . فكان من أثر هذه السياسة أن اغتصب

الوزراء تدريجاً تفوذ الخلفاء حتى أصبحوا يلقبون بقلب ملك بينما كان ملوكهم الخلفاء منزوين في قصورهم . وبعد أن كان تفوذ الفاطميين يشمل في المقابر الأول من حكمهم شمال إفريقيا والشام وجزيرة رودس وذكرت اسماء الخلفاء الفاطميين في الخطبة في الجوامع ما بين المحيط الأطلس والبحر الأحمر وفي اليمن والحجاز والموصل .

وهم هنا ، فإن قوة الفاطميين ابتدأت في الانحلال وذهبت أسعد ساحات الخلافة الفاطمية ، بسبب تهاون كبار رجال الدولة في اختيار الخلفاء الأكفاه ومبايعة الأطفال بالخلافة ليسهل على الوزراء والحجاب الأفراد بالسلطة . لذلك فإنه في سنة ٤٤٣ هـ رفض أمال شمال إفريقيا عقائد الملعب الصبي وقضا نهائياً . وانهى الاعتراف بالخلافة الفاطمية في بلاد العرب سنة ٤٧٣ هـ . وكان العهد المظلم الذي أعقب وفاة الوزير اليازوري قبل ذلك . كذلك قامت الحروب النصرانية بين الجنود المرتزقة من الأتراك والسودانيين وإن كان تفوذ بحر الجمال للوزارة قد وضع حداً لمدة قصيرة لهذا الاستبداد العسكري .

وإن البحث الدقيق في أسباب سقوط الدولة الفاطمية يدلتنا على أن السبب الأساسي يرجع غالباً إلى الحروب الصليبية . فإن تلك الحروب قد جعلت يزوال دولتهم الفتية لأن اشتباك الفاطميين مع الصليبيين في الشام وعدم قدرتهم على الوقوف أمامهم والحيلولة دون امتلاكهم لبيت المقدس ، قد أوقف نور الدين صاحب دمشق والصليبيين على ضعف الخلافة الفاطمية فتوجهت أنظارهم لامتلاك هذه البلاد وأخذ كل منها يعمل على امتلاكها .

وقد ظهرت إذ ذلك حملة صلاح الدين ، الذي كان نور الدين محمود صاحب حلب ودمشق قد أرسله إلى مصر مع عمه أسد الدين شيركوه على رأس جيش لقتال الصليبيين وطردهم من مصر . ولما لم ذلك عين صلاح الدين وزيراً بعد وفاة أسد الدين شيركوه وخصص جهوده كلها لطرده الصليبيين من بقية البلاد

التي فتحوها . ثم عمل صلاح الدين على تثبيت مركزه في مصر فتمكن بحسن سياسته أن يكتسب ثقة الأهليين ، فأسند مهام الدولة إلى أنصاره وظل يعمل على إخماد نفوذ الخليفة الماعند الفاطمي حتى جعله سجين قسره ، فأنازل ذلك سخط أهل القصر وأتباع الخلافة وجنده من السودان ودبروا المؤامرات للقضاء عليه . ولكن صلاح الدين علم بهذه المؤامرة وأمر بمراقبة زعيمها ، وتمكن من القبض عليه وقتله كما قتل كثيراً من السودانيين . فثار خمسون ألفاً للأخذ بثأر ذلك الزعيم وكان يسمى نجاح واشتبكوا مع جند صلاح الدين في المساكن المعروفة باسم « بين القصرين » وأحرق في هذه الموقعة كثير من المنازل والشوارع ، ودارت الدائرة أخيراً على السودانيين ففروا إلى الجيزة ومنها ذهبوا إلى الصعيد ، واستمروا في ثورتهم إلى أن قضى عليهم نهائياً في سنة ٥٧٢ هـ .

ولما توطدت أقدام صلاح الدين في مصر ، شرع يرسل الحملات ضد الفرنجة ، وبعد أن تم له النصر عليهم طلب من نور الدين أن يرسل إليه آياه وأقاربه فلبى طلبه . وكان من أثر انتصار صلاح الدين على الفرنجة في دمياط ، أن تعلق به المصريون على اختلاف فطهم من شيعين وسنيين ، فاتفقوا معه على محاربة أعدائهم من الفرنجة .

كذلك استقرت سلطة صلاح الدين على أساس متين من حسن انتظام بينه وبين المصريين حتى استطاع أن يستند المناصب الدينية في مصر إلى الفقهاء المتضلمين في المذهب السني ، بل لقد جرى في سياسته إلى أبعد من ذلك وهو التمسك لقطع الخطبة الخليفة الفاطمي . وانضوى تحت لواء صلاح الدين كل رجالات الدولة وسقطت إلى الحضيض سلطة الخليفة الماعند آخر الخلفاء الفاطميين ، كما استطاع صلاح الدين أن يجمع العناصر التي لم يبق بها في جيشه . ومن الطبيعي أن يرغب نور الدين وهو من خلاة السنة في إحلال اسم الخليفة العباسي في الخطبة محل اسم الخليفة الفاطمي وهو عمل ينطوى تحته إرادة الدولة الفاطمية .

وقد علم صلاح الدين برغبة نور الدين ، ولكنه تردد في تنفيذ هذه الرغبة لأنه خاف أن يثير هذا العمل أهالي مصر . ولكن نور الدين تعدد في الطلب .

وكان الخليفة العاضد مريضاً في ذلك الوقت ، فمقد صلاح الدين مجلساً من الأمراء واستشارهم في مسألة ذكر اسم الخليفة العباسي بدل اسم الخليفة الفاطمي فوافقهم بعضهم ، واخذوا على عاتقهم تنصيبه ، ورأى الآخرون خطورة هذا الاقتراح . وكان في هذا المجلس رجل فارسي اسمه الأمير اعظم أن يتولى بنفسه هذا الأمر وصعد في يوم الجمعة إلى المنبر قبل الخطيب ودعا للخليفة العباسي المستضيء فلم يحتاج أحد على ذلك وأمر صلاح الدين في الجمعة التالية بإقامة الخطبة للخليفة العباسي .

وهكذا تم ذلك التغيير من غير أن يلقى مقاومة ، ولم يثير الخليفة العاضد بذلك . وكان مريضاً ، وقال أعضاء أسرته : إن هو في هوييم ، وإن توفي فلا ينبغي أن تصحبه بهذه الحادثة قبل موته .

وتوفي الخليفة العاضد في ١٠ محرم سنة ٥٦٧ هـ من دون أن يعلم بهذا التغيير ، مجلس صلاح الدين للأمراء واستولى على القصر وما فيه من كنوز وطرائف وأسكن أولاد العاضد وأعمامه في جناح منه .

هكذا سقطت الدولة الفاطمية بموت العاضد بعد أن حكمت مصر عسراً طويلاً (٥٣٥٨ - ٥٦٧ هـ) وكان عصرها عصر يسر ورخاء وتسامح وتدين وثقافة ، وذلك لم تتمتع به مصر من قبل . وإن زوال الخلافة الفاطمية الشيعة على يد الأيوبيين السنيين الغلاة وإرجاع الخطبة للخليفة العباسي بعد أن قطعت الخطبة له في مصر وفي سائر الولايات الفاطمية الأخرى أكثر في قرنين . إن هذا كله يمكن أسميته : انتصار السنة على الشيعة .

تقرير الفاطميين :

مها قبل في الدولة الفاطمية ، فإن الباحث في تاريخ هذه الدولة ، لا يسهه إلا أن يذكر ما أدته مصر من جليل الخدمات وما خلفته من الآثار الباقية على الزمن ، تشهد بها بالقوة والنظرة ولطفاتها الأولى بالنفوذ والسلطان .

١ — انتقل الفاطميون إلى مصر ، فأصبحت مصر مقر خلافة لأول مرة في تاريخها ، بعد أن كانت مقر إمارة يحكمها ولاية .

٢ — تمتعت مصر الفاطمية ، بجميع مظاهر الاستقلال ، وصارت مستقلة استقلالاً تاماً .

٣ — امتدت دولة الفاطميين من المغرب ومصر ، إلى الشام والحجاز ، على حساب البساسين ، واعترف بسلطان الفاطميين في شمال إفريقيا ، ومصر ، والشام ، وآسيا الصغرى ، وسيطروا نفوذهم على سواحل البحر الأحمر ، وعلى اليمن ، والموصل ، وبلاد ما وراء النهر ، ومكة ، والمدينة ، بل وخطب لهم على منابر بغداد عاصمة البساسين .

٤ — بنى الفاطميون مدينة القاهرة عاصمة مصر الحالية .

٥ — نشط الفاطميون في بناء المساجد لنشر الدعوة الفاطمية : فبنوا الجامع الأزهر الذي حوله الخليفة العزيز إلى جامعة تعرف باسم الجامعة الأزهرية .

٦ — أسس الفاطميون دور الكتب لتشجيع البحوث في العقائد الإسلامية فأسسوا مكتبة القصر ودار الحكمة ودور العلم .

٧ — ازدهرت التجارة في عصر الفاطميين ، إذ اتصلوا ببلاد الهند والصين وبنحري أوروبا ، كما كان للفاطميين شهرة عالمية في صناعة المنسوجات وصناعة اللعائن وصناعة التماثيل والنقش على الخشب .

مصر الموسوية بعد سقوط الفاطميين :

تأسست على أثر سقوط الفاطميين ، دولة الأيوبيين ، وكان مؤسسها صلاح الدين الأيوبي من أبرز شخصيات العالم الإسلامي . وتيمز عهد الأيوبيين بالعمل الدائم في القضاء على الصليبيين ، ولكن عجل سقوط الأيوبيين قيام النزاع على عرش السلطنة مما أدى في النهاية إلى سقوط الدولة الأيوبية التي حكمت مصر على نسق الدولتين الطولونية والإخشيدية . فقد كانت تحكم إسماعياً من بغداد مقر الخلافة العباسية ، ولعب مؤسسها صلاح الدين نفس الدور الذي لعبه ابن طولون والإخشيد . واعتبرت مصر منذ قيام الدولة الأيوبية ، سلطنة يحكمها سلاطين بعد أن كانت دار إمارة ثم دار خلافة .

ويبدأ تاريخ دولة المماليك في مصر عقب سقوط الأيوبيين . وفي عهدها تمتعت مصر بكافة مظاهر الاستقلال ، وزال عهد التبعية الفعلية والإسمية من مصر ، وأعدت إلى الأذهان عهد الفاطميين ، وأن حكام المماليك لقبوا بلقب سلاطين وليس بلقب خلفاء كخلفاء الفاطميين ، وصارت مصر في عهدهم مركز الخلافة بعد أن زالت الخلافة العباسية من بغداد ، وصارت مصر يحكمها في عهد المماليك : سلطان له الإشراف السياسي على شئون الدولة ، وخليفة له الإشراف الديني ومنه يستمد سلطان المماليك سلطته الشرعية .

فترات حكم الدول التي حكمت مصر الموسوية :

أولاً : فترات كان يربط مصر بالخلافة ، الخطبة والجزية والملك .

١ - عهد تبعية مصر للخلفاء الراشدين ٢٠ - ٨٤٠ = ٦٤٠ -

٠ م ٦٦١

٢ - عهد تبعية مصر للخلفاء الأمويين ٤٠ - ١٣٢ = ٦٦١ -

٠ م ٧٥٠

٢ - مد تبة مصر الخلفاء العباسيين ١٣٢ - ٨٢٥٤ = ٧٥٠ -
 ٨٦٨ و ٢٩٢ - ٨٢٣٣ = ٩٠٥ - ٩٤٣ م .
 ثانياً : قرات كانت مصر مستقلة في الحكم ، مع التبة لنهوها في الإسم
 قط :

- ١ - زمن الطولونيين ٢٥٤ - ٨٦٨ = ٨٦٨ - ٩٠٥ م .
- ٢ - زمن الإخشيدين ٢٢٣ - ٨٣٥٨ = ٩٣٧ - ٩٦٩ م .
- ٣ - زمن الأيوبيين ٥٦٧ - ٨٦٤٨ = ١١٧١ - ١٢٥٠ م .
 ثالثاً : قرات كانت فيها مصر مستقلة استقلالاً تاماً :
- ١ - زمن لقاطمين ٣٥٨ - ٥٦٧ = ٩٦٩ - ١١٧١ م .
- ٢ - زمن للمالك ٦٤٨ - ٩٢٣ = ١٢٥٠ - ١٥١٧ م .

مصادر الكتاب^(١)

مرتبة حسب أحرف الهجاء بالنسبة لأسماء المؤلفين

أولاً : مصادر عربية مخطوطة

ابن حبير المستقلاني (٨٥٣هـ = ١٤٤٠ م) شهاب الدين بن حلي .
« رفع الإصر^(٢) من قضاة مصر » .

« مخطوط بدار الكتب المصرية رقم (٢١١٥) .

المعنى : (٨٨٥هـ = ١٤٥١ م) بدر الدين عمود .

« عقد الجنان في تلويخ أهل الزمان » ٢٤ جزءاً في ٦٠ مجلداً .

« مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٧٤ تلويخ .

العمري : (٧٤٢هـ = ١٤٤١ م) ابن فضل الله .

« مسالك الأبصار في ممالك الأمصار » ٢٠ جزءاً .

« مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٥٦٧ .

أبو المحاسن : (٨٧٤هـ = ١٤٩٦ م) جمال الدين سيف بن قنبري يردى .

« النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة » الجزء الرابع .

« مخطوط بدار بدار الكتب المصرية رقم ١٣٤٣ .

المقريزي : (٨٤٥هـ = ١٤٤١ م) تقي الدين أحمد بن حلي .

« كتاب السلوك في معرفة دول الملوك » الجزء الثالث .

« مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٣ فروسية .

(١) السنوات الثابتة أمام اسم كل مؤلف ، هي سنة وفاة ميتة بالمهجرى

والميلادى

الإصر : الذنب .

- التورى^(١): (٧٣٢ = ١٣٣٢ م) شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب .
 • نهاية الأرب في فنون الأدب ، ٣٢ جزءا .
 صور شمسية بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٠ معارف طعة ، مأخوذة من
 النسخة الخطية الموجودة بالمكتبة الأهلية بباريس .
 ثانيا : مصادر عربية مطبوعة
 أحمد عيسى : تاريخ البياراتات في الإسلام (القاهرة ١٣٥٧ = ١٩٣٩ م)
 الإدريسي^(٢): (٨٦٤ = ١١٨٨ م) .
 • كتاب نزهة المشتاق في ذكر الأوصاف والآثار والبلدان ، .
 ابن الأثير : (٩٣٠ = ١٢٣٧ م) على بن أحمد بن أبي الكرم .
 الكامل في التاريخ ١٢ جزءا (بولاق سنة ٢٩٤ هـ)
 ابن الإخوة : معالم القرية في أحكام الحسية ، (طبعة روين لينى Rubien
 Levy بلجنة ذكرى جب Gibb Memorial) .
 ابن زليس : (٩٣٠ = ١٥٢٣ م) أبو البركات محمد بن أحمد .
 • كتاب تاريخ مصر ، المعروف باسم • بدائع الزهور ، ٣ أجزاء . (بولاق
 ١٣١١ - ١٣١٢ هـ) .
 ابن بطوطة : (٧٧٩ = ١٣٨٧ م) أبو عبد الله محمد بن أحمد .
 • تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، جزآن (القاهرة
 ١٣٥٧ = ١٩٣٨ م) ترجمة إلى الفرنسية ديفرييرى Defromery
 وسانجنتي Sangalotti (باريس ١٣٥٣ - ١٣٥٨ = ١٨٦٩ -
 ١٨٧٩ م) .

(١) اشترك التوروي في حروب الممالك اشتراكا قليا ، ووصف كثيرا من
 وقائعهم ، ويمتاز كتابه بالوثائق التوثيقية بها وجهة نظره فيها أدلى به من آراء .
 (٢) جلدت شهرة الإدريسي لآمن طريق تأليفه هذا الكتاب ، بل رسمه خريطة
 العالم في العصر الذي عاش فيه .

- البكرى^(١): (١٨٧ = ١٠٩٧ م).
 • كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب .
 البهروني^(٢): (١٠٤٨ = ١٠٤٨ م).
 • الآثار الباقية من القرون الخالية .
 ابن قيمية: «الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية» جزء واحد
 ابن جبير: (١٦٤ = ١٢٨٧ م)
 • رحلة ابن جبير، (طبع في لندن سنة ١٨٥٢ م).
 جودسي زيدان: «تاريخ تمدن الإسلام» خمسة أجزاء (القاهرة ١٩٠٢)
 حسن إبراهيم حسن: «مروين العاص» (القاهرة ١٩٢٣ م).
 • القاطميون في مصر، عن الإنجليزية (المطبعة الأميرية ١٩٣٢ م).
 • تاريخ الإسلام السياسي - ثلاثة أجزاء (القاهرة ١٩٤٦).
 • انتشار الإسلام بين المغول، (بحث مستخرج من مجلة الجامعة المصرية،
 مايو سنة ١٩٣٣).
 • عبيد الله المهدي، (القاهرة ١٩٤٧)
 • المعز لدين الله، (القاهرة ١٩٤٧)
 ابن خلدون: (١٤٠٥ - ١٤٠٦ م). عبد الرحمن محمد.
 • مقدمة ابن خلدون، (بيروت ١٩٠٠ م).
 • المعبر وديوان البيت وأخباره، ٧ أجزاء (القاهرة ١٢٨٤ م).
 ابن خلسكان: (١٢٨١ = ١٢٨١ م). شمس الدين أبو العباس أحمد
-
- (١) ينسب البكرى لأبي بكر الصديق، وبكتابه معجمات جلية الشأن من شبال
 إفريقية وسكنها.
 (٢) البهروني من سكان يرون Bern أحد أحياء جنوة، وكان يطلق على الحي
 والبلدة اسم خوارزم.

- ابن إبراهيم بن أبي بكر الشافعى .
 « وفیات الأعيان وأنباء أبناء الزمان » جردان .
 (بولاق ١٢٨٣ هـ ، المطبعة الميمنية بمصر ١٢١٠ هـ) .
 ابن دقاق : (٥٧٠٩ = ١٤٠٦ - ١٤٠٧ م) إبراهيم بن محمد المصرى .
 « الانتصار بواسطة عقد الأمصار » ج ٤ ، ٥ ، القاهرة سنة ١٣٠٩ هـ =
 ١٨٠٣ م) نشره المستشرق فولز Ed. Voilard
 راشد البروى : الحالة الاقتصادية فى عهد الفاطميين (القاهرة ١٩٤٨) .
 رشيد الدين فضل الله : (١٣١٨ هـ) « كتاب جامع التواريخ » ترجمه إلى
 الفرنسية مسير إيتين كترمه E. Quatreméro . وانتهى رشيد الدين من
 تأليفه سنة ٧٠١ هـ (١٠٣١ م) .
 ذكرى محمد حسن :
 « الفن الإسلامى فى مصر » (القاهرة ١٩٣٥ م) .
 « مصر والحضارة الإسلامية » الرسالة الخامسة عشر من سلسلة التفاهة
 العسكرية التى تصدرها إدارة الشؤون العامة فى وزارة الحربية .
 « الرحالة المسلمون فى العصور الوسطى » (القاهرة ١٩٤٥) .
 ابن زولاق : (٥٣٧٨ = ١٩٩٧ م) .
 « الميون الدمع فى حل دولة بنى طنج »^(١)
 السبكى : (٥٧٧١ = ١٣٧٠ م) تاج الدين أبى نصر عبد الوهاب .
 « ميدان نعم وميدان القم » . (لندن سنة ١٩٠٨) طبعة داود ولهم موهر من
 David W. Myhrman المدرس بكلية أبسة للموكانية .
 « طبقات الشافعية الكبرى » ج ١ ، ٢ (المطبعة الحسينية بالقاهرة) .

(١) هو عبارة عن سيرة محمد بن طنج الإخشيد ، لكنه أمدا فى الوقت نفسه
 بمعلومات صحيحة من تاريخ الصدر الأول من أيام الفاطميين إلى سنة ٥٣٨٦ هـ .

- سميد بن البطريق^(١): (٥٣٢٨ = ١١٤٠ م).
 « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ».
 السيوطي: (٩١١ = ١٦٠٥ م). جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد
 « حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة »، (القاهرة سنة ١٨٨١ م)
 ترجمه إلى الإنجليزية الميجر ه. س. هورت (كلكتا سنة ١٨٨١ م)
 « تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة »، إدارة المطبعة للنهرية
 سنة ١٣٥١ هـ.
 ابن شاذي: (٥٧٦٤ = ١١٦٣ م) فخر الدين محمد بن أحمد الكتبي
 « فوات الوفيات »، (بولاق ١٢٩٩ م)
 أبو شامة: (٥٦٦٥ = ١٢٦٧ - ١٢٥٨ م). عبد الرحمن بن إسماعيل بن
 إبراهيم بن عثمان شهاب الدين للقلب بأبي شامة شافعي من أهل دمشق.
 « كتاب الروضتين في أخبار الدولتين »
Revue des Historiens Croisades. Historiens Orientaux. t. VI.
 وهناك طبعة أخرى في مجلدين (القاهرة ١٢٧٨ م).
 أبو صالح الأرمي: (٥٦٠٥ = ١٢٠٨ م).
 « تاريخ أبي صالح الأرمي، المعروف باسم «كتانس وأديرة مصر»^(٢)
 طبعة Evetts في أكسفورد سنة ١٨٩٥ م، وقرن نفسه العربي بترجمة
 إنجليزية.

(١) كان سميد بن البطريق معروفا باسم أوتينا Batychnus عند الأفرنج
 وكان بطريقا لقبط، وكتب كثيرا عن تاريخ مصر، وأمدنا بمعلومات تعتبر أصلية،
 إلا أن لغته يسيبها الركاكة وأنتم كتابه سجل من أخطاء كثيرة يدعى محمد بن سميد المتوفى
 سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٦ م).
 (٢) فيه يكتب المؤلف تاريخ الكتانس والأديرة المصرية وأحياء النصارى
 وتاريخ القديسين والبطاركة، وبعض أعمال الدولة الأيوبية وإقطاعياتها وغزاتها.

ابن طباطبا: ولد سنة ٨٦٠ = ١٣٦١ م وأتم كتابته سنة ٨٧٠١، (ولا تعرف سنة وفاته). محمد بن علي المروفي باسم الطقطقي.

«مختصر في الأدب السلطانية والنول الإسلامية، القاهرة ١٩١٣ م»
ابن عبد الحكم^(١): (٨٢٨٦) : «كتاب فتوح مصر والمغرب».

عبد الرحمن زكي: «القاهرة» (١٩٤٣).

عبد الطيف البغدادي: (٨٦٢٩ = ١١٣١ م) «مختصر تاريخ مصر».

علي إبراهيم حسن:

«جواهر العقول» (القاهرة ١٩٦٣ م):

«التنظيم الإسلامية»، بالاشتراك مع الدكتور حسن إبراهيم حسن
(القاهرة ١٩٦٢ م).

«دراسات في تاريخ الممالك البحرية» (القاهرة ١٩٦٣)

«استخدام المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي والتاريخ المصري الوسيط» (القاهرة ١٩٦٣)

«التاريخ الاسلامي العام» (القاهرة ١٩٦٣)

«الجيش والبحرية في عصر المماليك».

الرسالة الثالثة والخمسون من سلسلة الثقافة العسكرية التي تصدرها إدارة الشؤون العامة في وزارة الحربية، (القاهرة، مارس ١٩٤٤)

«آراء في تاريخ دولة المماليك البحرية».

(بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب، المجلد السابع، ١٩٤٤).

«أخطر المجموعات في مصر» و«عظمة الفاطميين» (مبحثان في مجلة الكتاب
عبد إلهي وديسمبر ١٩٤٦).

«دراسات مصادر التاريخ الإسلامي وحياة مؤلفيها».

بحث مجلة كلية الآداب بجامعة بغداد - العدد الأول - حزيران ١٩٥٩

(١) كان ابن عبد الحكم ماسماً لأحمد بن طولون، ومات بعده بست سنوات

وكتابه من أهم الكتب التي كتبت عن تاريخ مصر الإسلامية.

على مبارك : « الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة » ، ٣٠ جزءاً في أربع مجلدات (يولاي ١٣٠٥ هـ) .

عمارة اليمن ^(١) (١١٧٤ = ١٦٥٩ م)

« كتاب النكت المصرية في اختيار الوزراء المصرية » .

« ديوان عمارة اليمن » .

العمرى : (١٣٤١ = ١٧٤٢ م) شهاب الدين أحمد بن فضل الله .

« مسائل الأبحار في ممالك الأمصار ، الجزء الأول » .

نشره وعلق عليه المرحوم الأستاذ أحمد زكي ، (مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٤٢ = ١٩٢٤ م) .

« التتريف بالمصطلح الشريف » ، (القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ) .

عمر طوسون : « كتاب مالية مصر من عهد قراغنة إلى الآن » ،

(الإسكندرية سنة ١٩٤١)

ابن أبي الفغائل ، مفضل : « الفتح السديد والد الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد » .

« Texte Arabe Publié et traduit en Français par E. Blochet, Palaeografia Orientalis. t. Fasc. 3 Paris, III, 1930 »

ابن القلانسي : (١١٦٠ = ١٥٥٥ م) : أبو علي حمزة .

« ذيل تاريخ دمشق » (بيروت سنة ١٩٠٨ م)

القلقشندي ^(٢) : (٨٢١ = ١٤١٨ م) أبو العباس أحمد .

« صبح الأعيان في صناعة الإنشاء » ، ١٤ جزءاً (القاهرة ١٩١٢ م) .

« ضوء الصبح المسفر وجنى الفوح الثمر » ، (القاهرة ١٠٩٦ م) .

(١) تحصر أهمية عمارة في معاصره الحوادث التي جرت لمصر في أواخر أيام الفاطميين ، فكانت ~~تساهم~~ حيان لهذه الحوادث .

(٢) ولد سنة ٨٥٦ يهية للفتنة من أعمال مديرية القليوبية .

- الكندى^(١): (٨٢٥٠ = ٩٦١ م) أبو عمر محمد بن يوسف .
 كتاب الولاة والقضاة ، به ذيل مأخوذ معظمه من كتاب دفع الإصر
 عن قضاة مصر ، لابن حجر العسقلاني ، طبعة وفق جسد .
 B. J. T. Gibb Memorial Series, XIX. 1912, R. Guent
 الماوردي: (٨٤٥٠ = ١٥٠٧ م) أبو الحسن بن محمد بن حبيب المصري
 والاحكام السلطانية ، (القاهرة ١٢٢٨ م)
 أبو الحسن (٨٧٤ = ١٨٩٦ م) جمال الدين يوسف بن تفرى بردي
 والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ١٠ أجزاء
 (مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٣٥٠ - ١٣٥٧ = ١٩٣٠ - ١٩٤٠ م)
 والجزء الخامس : الفصل الأول والفصل الثاني (جزءان) - طبع جامعة
 كليفرونيا بإشراف William Popper
 محمد محمود هرنوس ، تاريخ القضاة في الإسلام ، والقاهرة ١٣٥٢ = ١٩٣٤ م
 المقرئ^(٢) : (٨٤٥ = ١٤٤١ م) ، تقى الدين أحمد بن علي
 ، المواقظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار ، جزءان ، بولاق ٨٢٧٠ .
 نشر مسيو جاستون فيت جانباً من الجزء الأول ، طبعة بولاق ، في أربعة
 مجلدات في العهد الفرنسي للماديات الشرقية في القاهرة ، (القاهرة ١٩١١ -
 ١٩٤٢ م)

-
- (١) كان الكندى مصري المولد والمولد ، ولما توفي سنة ٨٢٥٠ أتم كتابه ابن زولاق
 المصري المجلس المتوفى سنة ٨٢٧ م في خلافة الحاكم بأمر الله ووصل في كتابته إلى
 سنة ٨٢٩ م أي قبل وفاته بستة ، وأتم بعدها ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة ٨٥٣ م
 (١٢٤٩ م) ، وأتم كتاب القضاة وسماه ، دفع الإصر عن قضاة مصر ، ونشرت هذه
 الكتب الثلاث كلها مع بعض .
 (٢) ولد تقى الدين المقرئ في القاهرة سنة ٨٧٦ م ويكنى جده لأبيه المقرئ نسبة
 إلى مقرر من خطط ببلدك بسورية .

- كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الأول ، الجزء الثاني إلى سنة ٥٧٤١ . نشرها وعلق عليها الدكتور محمد مصطفى زيادة (مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٣٤ ويناير ١٩٤٢)
- كتاب إغاثة الأئمة بكشف الغمعة ، نشره وعلق عليه الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشيال (القاهرة ١٣٥٩ هـ = ١٩٤٠) (طبعة الجمعية الزراعية - القاهرة ١٩٤٣ م) .
- ابن منجب العيص في (٥٤٢ هـ) : الإشارة إلى من قال الوزارة ، ^(١) .
- ابن ميسر : (٦٧٧ هـ = ١٢٧٥ م) .
- تاريخ مصر ، طبعة هنري ماسيه . (القاهرة ١٩١٩) .
- ياقوت : (٢٢٦ هـ = ١٢٢٩ م) شهاب الدين أبو عبد الله الرومي .
- معجم البلدان ، ١٢ جزءا . (القاهرة ١٣٢٣ هـ = ١٩٠٦ م) .

ثالثاً - مصادر أوروبية

- Allan : (J.)
The Cambridge Shorter History of India. (Cambridge, 1924).
- Arnold : (T. W.)
The Caliphate. (Oxford, 1924).
- Aitya (A. S.)
The Crusade in the Later Middle Ages (London, 1938.)
Egypt and Aragon. (Leipzig, 1938.)
Embassies and Diplomatic Correspondence between 1800 and 1830 A. D.

(١) لكتاب قيمة خاصة في بحث تاريخ الفاطميين ، لأن ابن تيمية ديوان الرسائل في عهد الخليفة الأمر الفاطمي من سنة ٤٣٥ هـ حتى ٥٣٥ هـ ، كما كان متعللاً بالباطل الملكي اتصالاً مباشراً .

Bloch (E)

Histoire d'Egypte de Makrizi (Paris, 1906). Extrait de la
Revue de l'Orient Latin. Tomes VIII—XI)

Browne, (E. G.)

Literary History of Persia from the Earliest times until Firdawsi.
(London, 1900).

Literary History of Persia under Tartar Dominion. (1205—
1502 A.D.) Vol. II. (Cambridge, 1920).

Literary History of Persia. Vol. III. the Tartar Dominion
1205—1502. (Cambridge, 1923).

Budge (A. W.)

A History of Ethiopia. Nubia and Abyssinia-2 Vols. Bulletin
of the School of Oriental Studies (B. SC. O.).

(Cam. Med. Hist.) Cambridge Mediaeval History (Vol. IV).

Christensen. (A.)

L'Empire des Sassanides. (Copenhague, 1907. Memoires de
l'Academie Royale des Sciences et des Lettres— Denmark).

Colin. (G. S.) et E. Levi-provençal.

Un Manuel Hispanique de Hisha (paris, 1931).

Demombynes. (G)

La Syrie a l'Epoque des Mamelouks. (paris, 1922.)

De Sacy : (S).

Bibliothèques Arabisantes Francais (Le Caire) 1933.

(Mem. I. F. A. Cairo)

D' Hossou (Baron)

Histoire des Mongols depuis Tchingiz Khan jusqu' a Timour
Bey ou Temerlan, vol. III.

Dozy (R).

Supplément aux Dictionnaires détaillés des Noms de Vêtements
Chez les Arabes (Paris, 1845).

(Enc. Isl.) Encyclopaedia of Islam.

Devonshire (R. L.)

Rambles in Cairo, 1931.

Hassan H. 1.

Relations between Egypt and the Caliphate (Cairo, 1940)

Hautecoeur (L.) et Wiet (G).

Les Mosquées du Caire. 2. vols. (Le Caire, 1923).

Heyd : (W.)

Histoire du Commerce au Moyen-Age. Vol. II.

(Leipzig, 1925).

Hitti : (F. R.)

The History of the Arabs. (London, 1940).

- (J. A) *Journal Asiatique*.
 Howorth (Sir Henry)
History of the Mongols Part III. vol IV. (London, 1876-1888).
 Kendrick. (A. F.)
Catalogue of Muhammadan Textiles of the Medieval Period.
 (Victoria and Albert Museum)
 Lane—Pook, (S.)
The Art of the Saracens (London, 1888).
The Story of Cairo. (London, 1882)
History of Egypt in the Middle Ages (London 1900)
The Muhammadan Dynasties (Paris 1905)
 Lavoix (H.)
Catalogue de Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale,
Egypt et Syrie.
 Le Strange (G.)
Palestine under the Moslems.
 Marcel (M. J. J.)
Histoire de L'Egypte depuis la Conquête des Arabes Jusqu'à
L'Expédition Française. (Paris, 1848)
 Mayer (L. A.)
Saracenic Heraldry « Oxford, 1933 »
 Mercier
La Chasse et les Sports chez Les Arabes. « Paris, 1927 »
 Michel « B »
L'Organisation Financière de l'Egypte sous les Sultans Mamlouks
d'après Qalqachandi. Le Caire, 1925.
« Extrait de bulletin de l'Institut d'Egypte, T.VII. Session
1924—1925 ».
 Muir « W. E. »
The Caliphate, its Rise, Decline and Fall « Oxford, 1902 ».
 Quatremère « E. »
Histoire de Sultans Mamlouks de l'Egypte 2. vols. Paris,
1837—1844 »
 Toussoun : « Omar »
La Géographie de l'Egypte à l'Epoque Arabe « Mémoires de
la Société Royale de Géographie d'Egypte, t. VIII. 1. 2 parties—
Le Caire 1926—1928 »
 Sanhoury. « A. A. »
Le Califat « Paris, 1928 ».
 Van Berchem « Max »
Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum. « Le
Caire, 1828 » Mem. I. F. A. Caire.

Wiel : G.

Histoire de la Nation Egyptienne. L'Egypte Arabe. Paris, 1926.

Précis de l'Histoire d'Egypte. Le Caire 1933.

Les Biographies du Manshal Safi. Memoires Présentés à l'Institut d'Egypte. Le Caire, 1932.

Trois Formules d'indépendance dans l'Egypte Medievale. ed. de la Revue du Caire, 1942.

Corpus Inscriptionum Arabicarum, Egypte, tome II. Mem. de l'Institut fr. d'archéologie, 1900.

كتب المؤلف

١ - انظم الموسومة (الطبعة الثالثة ١٩٦٢)
بالاشتراك مع الدكتور حسن ابراهيم حسن مدير جامعة أسيوط السابق.
يبحث في نظام الخلافة ، والوزارة ، والكتابة ، والحجاية ، وسلطة الولاة ،
ودواوين الحكومة ، والجيش ، والبحرية ، ومصارف بيت المال ، ونظام القضاء .
ترجمه مولاي عليم الله خان صاحب صديق إلى اللغة الأوردية ، لغة ،
بلاد الهند الرسمية . ونشرته ندوة المصنفين في دلهي .

٢ - نساء العرب في التاريخ الموسومى نصيب (الطبعة الثانية ١٩٦٣)
يبحث في تاريخ النساء في الدولة العربية ، والدولة العباسية ، ومصر
الإسلامية الوسيطة ، ويتناول ملابس المرأة في الإسلام .

٣ - سيرة القاهرة (الطبعة الثانية ١٩٥١)
بالاشتراك مع الدكتور حسن ابراهيم حسن ، ترجم من الإنجليزية إلى
العربية عن Lana - Poole : The Story of Cairo

٤ - جوهر العقلي (الطبعة الثانية ١٩٦٣)
يبحث في حياة جوهر قائد المعز لدين الله الفاطمي ، والدور الذي قام به
المعز في تاريخ مصر

٥ - مصر في المصور الوسطى (الطبعة الخامسة ١٩٦٣)
من الفتح العربي إلى الفتح العثماني
يبحث في تاريخ مصر من الفتح العربي إلى الفتح العثماني . ويشمل عهد
الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين في مصر ، وحمود دول : الطولونيين ،

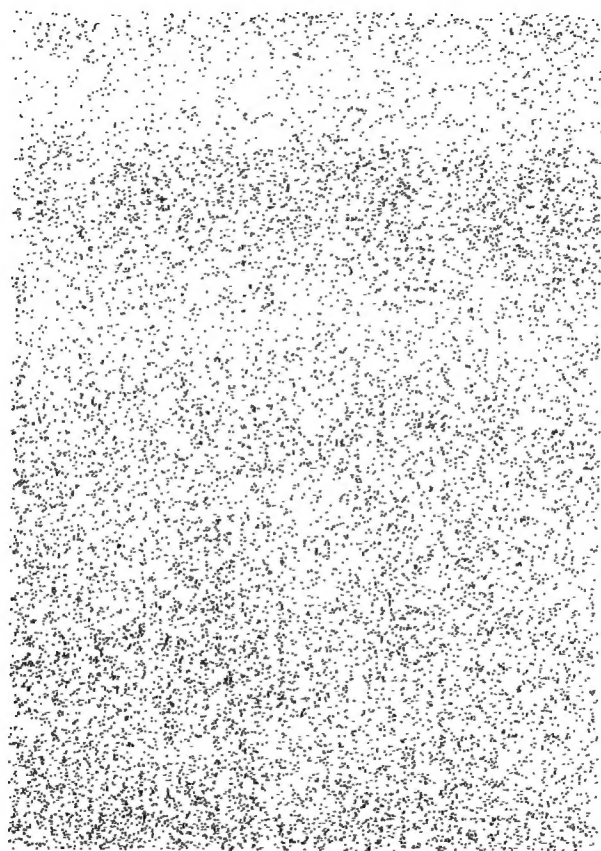
والإخشيدين ، والفاطميين ، والأيوبيين ، والمماليك . وذلك فيما يتعلق بالتاريخ
السياسي ، والعلاقات الخارجية ، ونظم الحكم ، والمنقعات ، والحالة الاقتصادية ،
والحالة الاجتماعية .

٦ - دراسات في تاريخ المماليك البحرية (الطبعة الثالثة ١٩٦٣)
يبحث في مييزات الدولة ، وسلطنة المماليك قبل الناصر محمد وفي صده ،
وصهود أبنائه وحفدته ، والسياسة الخارجية ، ومبدأ الوراثة . وألقاب
السلطان ، ووظائفه ، والبيوت السلطانية ومديريها ، والحرس السلطاني داخل
القصر وفي المراكب ، ونظام الخلافة العباسية في القاهرة ، ودواوين الحكومة
الملوكية ، وكبار الموظفين الإداريين ، والجيش الملوكي ، واقتضاء والمظالم
والحسبة ، والحالة المالية والاقتصادية ، والحالة الاجتماعية .

٧ - استثمار المصادر وطرق البحث في التاريخ الإسلامي والتاريخ
المصري الوسيط (الطبعة الثانية ١٩٦٣)
يبحث في طرق البحث التاريخي ، ومصادر الآثار ، ودواوين الشعراء ،
ومصادر الرحالة والجغرافيين ، والمخطوطات ، ومصادر الأقدمين المنشورة .

٨ - التاريخ الإسلامي العام (الطبعة الثالثة ١٩٦٣)
يبحث في تاريخ الجاهلية ، والبعثة النبوية ، والخلفاء الراشدين ، والدولة
الأموية ، والعصر العباسي ، ونظم الحكم في الجاهلية والدولة العربية والدولة
العباسية .

الناشر : مكتبة النهضة المصرية
شارع عدلي بالقاهرة



The History of Gawhar Al Sikilli
COMMANDER OF THE FATIMITE CALIP AL MO'IZ

By
Dr. Aly Ibrahim Hassan
Senior Inspector of Humanities,
Ministry of Education, Cairo.

PUBLISHED BY
THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9, ADLY STREET, CAIRO.